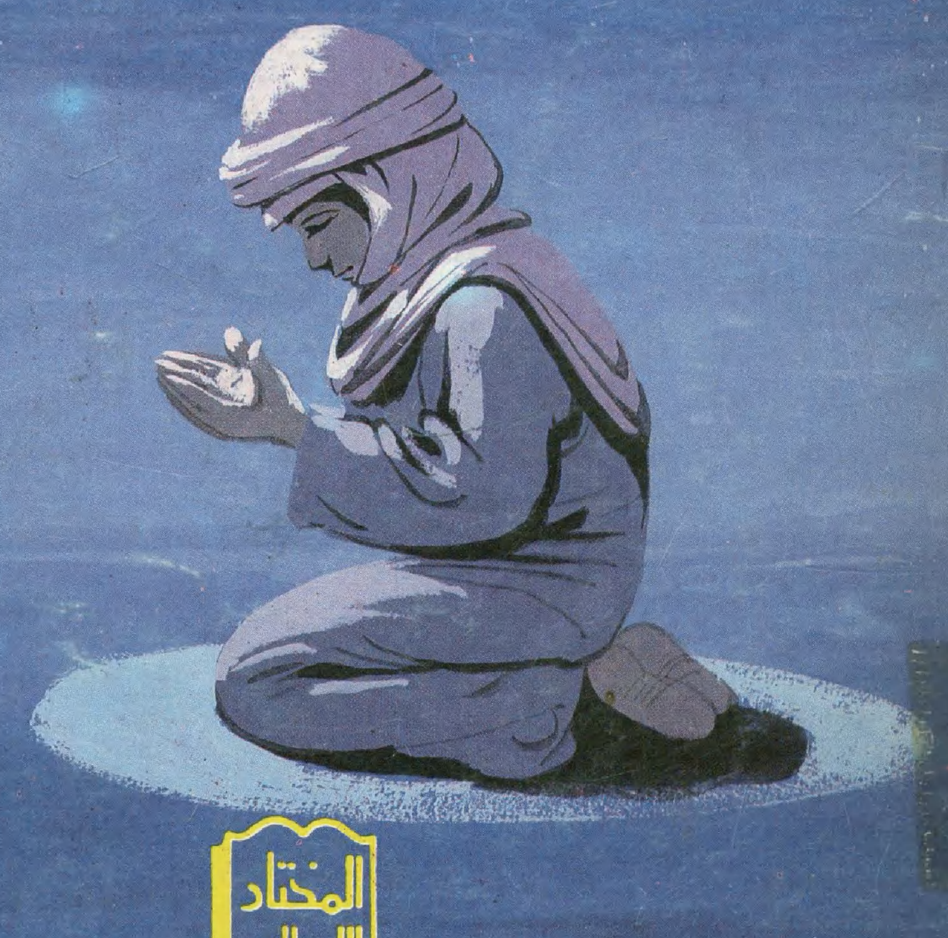
مسلمات مؤمنات

محمد على قطب






مكتبة
طريق العلم

محمد علي قطب

مسلمات مؤمنات

المختار الإسلامي
للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلصَّادِقَاتِ وَٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّابِرَاتِ وَٱلْخَاشِعِينَ وَٱلْخَاشِعَاتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ وَٱلصَّائِمِينَ وَٱلصَّائِمَاتِ وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَافِظَاتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

ـ صَدَقَ الله العظيم ـ

خديجة أم المؤمنين

نحن اليوم على موعدٍ مع شخصيةٍ حبيبةٍ إلى نفوسِنا . طالَما آزرتِ النبي ﷺ في صدْرِ الدّعْوةِ الإسلاميّةِ . وأعانت على تثبيتِ ونشْر دعوة الإسلام .

وهى الزوجة الأُولى للنبي ﷺ . وأول مسلمةٍ آمنت به وصدَّقتْه وحملت لقب أم المؤمنين .

وهى أُمّ أَولاد النبي ﷺ : القاسم وعبد الله «الطَّيب أَو الطاهر» وزينب ورْقيَّة وأُم كُلْثوم وفاطِمة .

تلك الشخصية هى السيدة خديجة بنت خُوَيْلد بن أَسد بن عبد العزَّى بن قُصىّ القرشية الأسدية . سيدة نساء أَهل زَمانِها .

وأُمها هى فاطمة بنت زائدة بن الأَصمّ . واسم الأصم جُنْدب بن هرم بن رَواحة بن حَجَر بن عبد بن مَعيص بن عامِر بن لُؤَىّ بن غالب ابن فِهر .

وكانت تُكنى فى الجاهِلِيَّةِ : أُمّ هِنْد .

وهى الملقبةُ بالطاهرةِ وسيدة قُريْش .

مولــدها

وُلدت رضى الله عنها فى بيت مجدٍ وسؤدُد ورياسة قبل الهجرة بثمانية وستِّين عامًا وقبل عام الفيل بخمسة عشر عامًا تقريبًا .

والحديث عن عام الفيل يشدُّنا إلى معرفة نُبذَة يسيرة عن حادثة الفيل التى أَرّخ بها العَرب رَدَحًا من الزمن .

وهذه الحادثة تتلخص فى أَن أَبْرهة الحبشىّ ضاق ذَرعًا بإقبال العرب على الحج إلى بيت الله الحرام ومجىء الناس من كل مكان إلى مكة المكرَّمة ٱلْبلد الأَمين . ولذا قرر أنَ يبنى فى ٱليمن كنيسة تفوقُها زخرفةً .

ثم طلب من الناس أَن يحجُّوا إليها ويتَّجهوا لها بقرابينهم ، ويقصدوها فى صلواتهم وأَداءِ شعائِرهم . ولكن الناس لم يكترثوا لكنيسته ومكثوا على حالهم يعظِّمون ٱلْكعبة ويقدِّسونها ويحترمون ٱلْبلد الحرام . وحينئذ ثار أَبْرهةُ وقررَّ هدم الكعبة المشرّفة حتى يُرغم الناسَ على تقديسِ الكنيسة التى بناها .

فَجهَّز جيشًا عظيمًا وفير ٱلْعَدد كثيرَ ٱلْعُدد وصدَّره بفيلٍ عظيمٍ حتى يُثيرَ الرُّعبَ فى قلوب ساكنى مَكةَ . وقرَّر غزوَ ٱلْبلد الآمن ، فتقدم على رأْسِ الجيشِ نحو ٱلْكَعبة فى مكةَ .

وعَلِمَ أَهْلُ مَكة بقدوم جيْشٍ لا قِبَلَ لَهُمْ به قاصِدًا ٱلْكَعبةَ ليَهْدِمَها ، فارتاعوا واشتد بهم الهلع والاضطراب وأَدركوا أَن الأَمر فوق طاقتهم .

ولكن شيخهم العاقل عبدَ المُطَّلِب تعلق بأَستار ٱلْكَعبة وأَخذ يُنشد :

لا هُمَّ إنَّ ٱلْعَبْد يمنـ ـعُ رحله فامنع حلاَلكْ
لا يَغْلِبن صليبهُم ومحِـ ـالُهُم غَـدْوًا مِحَالَكْ

ودعا ربه أَن يَحْمى ٱلْبيتَ . ثمَّ انْطَلَقَ هُوَ ومَنْ مَعَهُ من قريش إلى الجبل ليتحرزوا فيه ينتظرون دخول أَبْرهة مكة وما يفعلُ فيها .

وأصبح الصباح ودخل الجيش (أُمَّ القرى) ووَّجه أَبْرهة ٱلْفيل نحو ٱلْكَعبة وعندها أَبى ٱلْفيلُ أَن يتحرَّك ، ووجهه أَبْرهة وِجْهةً أُخْرى فمشى ، فعاد ووجَّههُ نحو ٱلْبيت فوقف ثابتًا لا يتحرك يرفُض المسيرَ لهدمِ ٱلْبيت الحرام .

وحار جنود أَبْرهة فى أمر هذا ٱلْفيل وتساءلوا : ماذايفعلون ؟ .

ولكن الجواب جاءهم من السماء فقد حلَّقت فوقهم أسرابٌ من طيرٍ تحملُ فى مَناقيرها حُبوبًا دقيقةً أَلْقَتْها على جيش أَبْرهةَ وفِيلهم ، فإذا كلُّ مَنْ جاءَت فوقه حبَّةٌ مِن تلك الحبوب يهلِك ، فهلك الملك الطاغيةُ وهلكَ الجنودُ الظالمون وهلك ٱلْفيل .

وسجَّل اللهُ سُبْحانَه هذِهِ الحادِثَةَ فى كِتابِه ٱلْعزيز حيث قال فى سورةِ ٱلْفِيل :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبابيلَ[1] * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارةٍ مِنْ سِجِّيلٍ[2] * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[3] مأْكُول﴾ .

---

(١) طير أبابيل : أى جماعات جماعات .

(٢) من سجيل : من طين متحجر .

(٣) كعصف : ورق الشجر .

وأصبَحَت مَكة فشَهدَت انتقام ربِّ ٱلْبيت لبيته وحمايته له .
فتحدَّثت بالقصَّة مأْخوذةً بروعة الحادثِ ، وجلال الحمايةِ الربّانيَّةِ .
وأَصبَحتْ قريشٌ تؤَرِّخُ بهٰذا الحادث فتقول :
(حَدَثَ هذا قَبْل عامِ الفيلِ بكذا أَو بعدَ عام الفيلِ بكذا) .
وفى عامِ ٱلفيلِ وُلِدَ النبى ﷺ .

* * *

وقد نشأَت السيدةُ خديجةُ فى بيتٍ من الْبيوتات الشريفةِ فتربَّت على الأَخلاق الحميدةِ . واتَّصَفتْ بالحزْمِ والْعقْلِ حتَّى دعاها قومُها (الطاهرة) لشدَّة حرصها على الخُلق الكريم . والأَدَبِ ٱلْعظيم .
وقد مات أَبوها خُوَيْلِد قبل حربِ ٱلْفِجار ، فأَشرف على شئونها عمها عمرو بن أَسَد .

زواجها

كبِرَت خديجةُ وأَخذ يظهرُ فضلُ عقْلِها فى المُجْتَمع ، فتقدمَ لِخطبتِها أَكثرُ من واحدٍ ، لَشرَفِ حسَبِها ونسَبِها وعظيم أَدبها . فتزوجت السيدةُ خديجةُ أَبا هالة . واختلفت كتبُ السيرةِ فى اسمِهِ فقيل : اسمه نمَّاش أو نبَّاش وقيل : زُرَارة وقيل : مالِك . وعلى كل حال فهو أَبو هالةَبن زُرارة بن وقدان بن حبيب بن سلامَة بن عدىّ بن جروة ابن أُسَيْد بن عمرو بن تميم التيميّ حليف بنى عبد الدار بن قُصى .

فأَنجبت منه هالة وهندًا وبه كانت تُكنى . وقد عاش هند حتى أَدرك النبي ﷺ فى البعثة وأَسلم وحسُنَ إسلامُه . وقد وصَفَ هندٌ النبيَّ ﷺ فأَحسَنَ وصفَه وَأَتْقَنَهُ .

ولهُ جهادٌ فى الإسلام ، وقد عُمّر رضى اللهُ عَنْهُ حتى خِلافَة الإمام علىّ كرم الله وجْهَهُ يومَ الجملِ واستُشْهد فيها .

ثم حَدَثَ فراقٌ بين السَّيدةِ خديجةَ وزوجِها الأَوَّل أَبى هالة بسبب موته .

ثم تزوجت السيدةُ الطاهِرَةُ من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عُمَر ابن مخزوم المخزومى .

ومكَثَتْ مَعَهُ فترةً مِنَ الزمن ثم افْترقَا أيضًا .

وبعد ذلِكَ تقدَّم لهَا أشرافُ قريشٍ وكلٌّ مِنهم يرغبُها زوجةً لَهُ . ولكنْ يبدو أَنها آثَرَتْ أن تنصرفَ لتربيةِ أَولادِها ، وإِدارةِ شئونِ تجارَتِها ، فقدْ كانت غنيَّةً ذاتَ مالٍ . وكَانَتْ تستأْجِرُ الرِّجالَ فى مالهِا لِيتاجروا لها ، وتَدْفَعُ لهم المال مضاربةً ، فتكونُ عِيرُها كعامة عِيرِ قريش .

ذلك موجزٌعن سيرةِ حياتِها قبل أن تَتَزَوجَ بسيِّد الخلق محمد ابن عبد الله ﷺ .

* * *

صفاتها

كانَتْ رضىَ اللهُ عَنْها تَمتازُ بحِدَّةِ الذكاء والعفَّة والطُّهْرِ والسماحَةِ والسّخاء .

وهى مِمَّن كَمُلَ من النساء ، لقَّبها الرَّسول ﷺ بسيدةِ نساءِ أهل زمانها . وكانَت من أَهلِ الجنة بشهادةِ زوجِها الحبيبِ سيدِنا محمد ﷺ فقد روُىَ أَنهُ قالَ لهَا :

(إِنَّ اللهَ يُبشِّرُكِ ببيتٍ فى الجَنَّة من قَصَبٍ لا صَخَب فيه ولا نَصَب) .

وقد أقْرأهَا اللهُ سُبحانَهُ السلامَ على لِسانِ أمينِ الوحى جبريلَ عليْهِ السلام وبشرها بهذه البشرى .

كانَتْ خديجة شريفة مُحسَّبةً ، حازمةً لبيبةً ، عاقِلةً مَصُونَةً جَليلةً طاهرةً نقية السَّريرَةِ ، صافيةَ الرُّوح ، كثيرَةَ المالِ ، ذاتَ حُسْنٍ وجمالٍ ، طلقةَ المحَيَّا ، باشة الأسارير ، تتمتع بقسطٍ كبيرٍ من سموِّ الأَخلاقِ ، وشَرَفِ الحَسَبِ ، وعلُوِّ النَّسب .

وهذا كُلهُ هيَّأها لأعْظَمِ مَنْزلَةٍ لها فى هذا الوُجود .

الرحلة الموفقة المباركة

أْحسنَت خديجةُ إشرافَها على أَموالها بمرور الأيام و اتسعت تجارتُها إلى الشام . وأخذت تُفكرُ فى رجل أمين يُحسِنُ لها إدارةَ الأموال والإشرافَ على التجارة من مَكَّةَ إلى الشام .

ثم بلغها عن الأَمينِ محمد بن عبد الله أَمانَتهُ وصدقه ، فرغِبَتْ أَن تَدْفَعَ تجارتها إليهِ ليتاجِر لها فيها فبعثت إِليهِ وعَرَضت عليهِ أَن يتاجرَ لَها وتُعطيه ، أَكثر مما تُعطِي غيرَهُ مِمَّنْ تاجرَ لها مع غلامٍ لها يُقالُ له مَيْسَرَة .

قالَ أَبو طالب لابنِ أخيهِ الأَمينِ محمدٍ ﷺ :

(هذه عيرُ قَوْمِك قد حَضَرَ خُروجُها إلى الشام ، وخديجة تبعَثُ رجالاً يتَّجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جِئْتَها لفَضّلَتْكَ على غيرِكَ لما يبلغُها عنك من أَمانَتِكَ وطهارَتِك . وإنْ كنتُ أَكرَهُ أن تأتىَ الشامِ وأخافُ عليك من اليهود .

وقال له رسُول الله ﷺ :

(ما أحبَبْت يا عمّ) .

ووافقَ الأمينُ .

وقالتْ له السيدةُ خَديجةُ :

(إنه ممَّا دعانى إلى البعْثِ إليْكَ دونَ أَهل مَكَّة ما بَلَغَنى من صِدْقِ حديثك وعَظيمِ أَمانَتِك وكرَمِ أَخلاقِك) .

ولم تَكْتَفِ السيدةُ الكريمةُ بما بَلَغَها وسَمِعَتْهُ عَنْهُ بَلْ أَرسَلَتْ مَعَهُ غلامَها مَيْسرَةَ لِيُراقِب حَرَكاتِهِ وسكناتِه عنْدما يعود .

ولعلنا نلاحظُ رجَاحةَ عَقْلها فى إرْسَالِ غلامها معهُ لِيُلاحِظَ تَصرُّفاتِهِ ومعاملته ، فإنَّ معاشَرَةَ المسافِر تكشِفُ عن خُلقِهِ الأصيلِ ،

وتُظهر شَخْصيتَّه على حقيقتها فالمُعاشرة تُظهر الإنسان تحتَ بوْتقة الاحتكاك . فهو يراهُ فى نَوْمِهِ وقيامِه وبَيْعِهِ وشِرائِه ومشيهِ ومعامَلَتِهِ وجميع تصرُّفاتِهِ .

وسافر الصادقُ الأمين مع غُلامها فى التجارَة وانْصَرَفت السيدةُ خديجةُ إلى إدارةِ شئونها فى مَكَّة فى انتظار عَوْدَةِ القافِلَة مِنَ الشام .

وفى أحَد الأيَّامِ دَخَل مَيْسَرَةُ مسرْعًا على سيدَتِهِ يَزُفُّ الْبُشْرى بعودتِهِ مع محمَّد الأمين سالِمَيْن مُحمَّلَيْن بالأرْباح الوَفيرَة والتِّجارة الكثيرة . وأسرَعَت السيدَةُ خديجةُ لتستقبلَ الأمينَ هاشّةً باشّةً وهنَّأتْه على سلامةِ الوصول

وجلس الأمينُ يقصُّ عَلَيها أنْباءَ رحْلَتِه المُوَفَّقةِ . وأحْصى لها الربْحَ فوَجَدَتْه مضاعفًا فى هذا العام ، فأجْزَلَتْ له الأجْرَ وأعطَتْهُ ضِعْف ما قالت ، فخرج محمد من عندها وهو راضٍ مُطْمئن البال .

وأَقْبلتْ خديجةُ على غلامِها مَيْسَرَةَ تَسْمَع مِنهُ أَنباءَ الرحلةِ وهو يَقُصُّ عليها ما رآهُ مِن مُميّزاتٍ لشَخْصِيَّةِ الصَّادِقِ الأَمينِ ، وكانَ **أوّل** ما لاحظَهُ مَيْسَرَةُ ولفَتَ نَظَرَهُ أَنَّهُ إذا كانتَ الهاجِرَةُ واشتدَّ الحرُّ يرى غَمامَةً تظلِّلهُ مِنَ الشمْسِ وهو يَسيرُ على بَعيرِهِ .

والشيءُ الثانى : كان صِدْقهُ فى الْبيع والشراء .

والشيء الثالثُ : الذى لاحظهُ مَيْسَرَةُ أَنهُ كانَ لا يحْلِفُ على ثمن سِلْعَةٍ قَطُّ ولا يُلِحُّ على التاجرِ أَنْ يأْخُذَ سلْعَتَهُ ... وأَشْياءَ أُخرى كثيرة .

وأُخِذَت السيدةُ خديجةُ بما سَمِعَتْهُ من كَريمِ صفاتِ الأَمين وعظيمِ سجاياهُ صلواتُ الله وتسليماتُه عليهِ .

زواج ميمــون

شُغِلت السيدَةُ خَديجةُ بالأَمينِ مُحمد وتساءَلَت :

تُرى هل يَقْبل الأَمينُ الزواجَ مِنها وهى التى بَلغَت الأَربعينَ من عُمُرها وهُوَ لَمْ يَزَلْ فى الخامِسَةِ وآلعِشْرين ؟.

وبقِيَتْ على حالِها حتَّى دَخَلت عَلَيْها صَديقتُها نَفِيسةُ بنتُ مُنْيَة فجَلسَتْ مَعَها تُبادلها أَطْرافَ الحَديثِ فلم يَخْف عليها ما تُفَكِّرُ فيهِ صَديقَتُها فما زالتْ بها حتَّى باحَتْ لها بما يَدُور بخَلَدِها وهى تَسْتَغْربُ ذلِك آلنَّبْض آلعَميق الذى اجتاح جَوَارِحها وسكَنَ فُؤَدها .

ولكن الصَّديقةَ آلوفيَّةَ هَدَّأَت مِن رَوْعِها وطمْأَنَتْ خاطِرَها وذَكَرَتْها بنَسَبِها وحسَبِها وبأَنَّها ما زالت جميلةً فتيَّةً وأَنَّها إلى جانِبِ ذلِك ثريَّة وكمْ مِنْ أَشْراف قومِها طَلبَ يَدها وتمنَّاها زوجةً لهُ ! !

وخرَجَت السيدةُ نَفيسةُ مِنْ عِنْدِ صديقَتِها وانطلقَت إلى مُحمد الأَمين . وما أَن جلسَت حتَّى ابْتَدَرَتْه مُتَسائِلَةً :

يا مُحمد ما يَمْنَعُك أَنْ تتزَوَّج ؟ !

وأَحسَّ الأَمين مُحمد أَنَّها تَعْرِضُ عليهِ زَوْجة تُرَشِّحُها له فقال لها :

ما فى يَدى شىءٌ أَتَزوجُ بهِ ! !

وٱبْتَسَمَتْ نَفيسةُ ثم قالت :

فان كُفيتَ ودُعِيتَ إلى المالِ والجَمالِ والشَّرف والكَفاءةِ فَهَلْ تُجيبُ ؟.

وتَساءلَ الصادِقُ الأَمين :

ومَنْ ؟.

قالت : خديجةُ بنْتُ خُوَيْلِد .

وقالَ الأَمين :

فإنْ وافقتْ فقد قبلت .

وانطَلقَت نَفيسةُ فدَخَلت على خَديجةَ تزفُّ إليها ٱلْبُشْرَى بموافَقَةِ الأَمينِ على الزَّواج مِنْها . فأَشرَقَ مُحيَّاها وتَهللت أَساريرُها وشَكَرَت صَديقَتَها على مُهمَّتِها الجليلة . وقامت فى حُبورٍ تُوزِّعُ ٱلْعَطايا على ٱلْفُقَراءِ شُكْرًا للهِ على تِلكَ النعمةِ ٱلْعَظيمةِ . والسعادَةِ ٱلْغامرَةِ .

وأَخبرَ الأَمينُ أَعمَامَهُ أَبا طالِبٍ والحمزةَ وٱلْعبَّاس برغبتهِ فى الزواجِ مِن السيدةِ خديجَةَ بنت خوَيْلِد وطلبَ مِنْهُم خِطبَتَها لَهُ فَوافَقَ أَعْمامُهُ مَسْرورينَ باخْتيارِ ابنِ أَخيهم .

وحدَّد أَعمامُهُ مع عَمِّها عَمرو بن أَسَد يومًا لِزَواجِ مُحمدٍ بِخديجَة .

وذَهبَ الأَمينُ مع أَعْمامِهِ إلى دارِ السيدة خَديجَةَ فلما اكْتَمَلَ عَدَدُهُم تَقَدَّمَ أَبو طالب فافتتح الحفْلَ بخُطبةٍ جاءَ فيها :

(الحمدُ للهِ الذى جَعَلنا مِن ذُرِّيةِ ابراهيم وزَرْع اسْماعيل وجَعَلَ لنا

بيْتًا محجوجًا ، وحرمًا آمِنًا ، وجَعَلنا الحُكَّامَ على الناسِ ... ثم انَّ ابنَ أخى هذا : (مُحَمد بن عبدِالله) لا يُوزَنُ برجل إلا رَجَحَ به شرفًا ونُبْلاً وفَضْلاً وعَقْلاً .

وإن كان فى المال قُلاًّ ، فان المال ظلٌّ زائِلٌ ، وعاريةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ ، ولَهُ فى خديجة بنت خُوَيْلِد رغبةٌ ولها فيه مثلُ ذلِك).

ثم تكلم عمرو بن أَسد ، فأَثنى على الأَمينِ مُحمد الزَّوْج المبارَكِ وأَهلِهِ ، وَرَحَّبَ بهِ وأَعلنَ قَبْولَ زواجِهِ من ابنةِ أَخيهِ الجَليلةِ واتَّفق معه على صداقٍ قدْرُه عشرون بَكْرةً .

وفى يومٍ ما من أَيامِ مكةَ السعيدةَ انْطَلقَ خبرُ زواج مُحمد بن عبد اللهِ لخَديجةَ بنتِ خُوَيْلد .

وأُقيمَت الولائمُ فى بيتِ ٱلعَروسِ ونُحرَت الذبائح ووُزِّعَت على فقراءِ مكةَ فأُطْعِمَ الجائِعُ وأُعطِيَ المحرومُ .

وأخذَت السيدةُ خَديجةُ تستعدُّ ليومِ زفافِها وأَحسَّت لفرطِ فَرَحِها وعظيمِ بَهْجَتِها أَنها نالَتْ ما تُريد .

وجاء ٱلْيومُ الموعود وأَصبحَت الطاهرةُ زوجًا لمحمدٍ الأَمين ﷺ .

وشهدت ٱلْعُرْس ٱلْعَظيم مع مَن شهد ، السيدةُ حليمةُ السعديَّةُ التى أَرْضَعَت النبىَّ ٱلْكريم مُحمد بن عبدالله ﷺ وعادَتْ إِلى قَوْمِها وَمَعَها أَربعون رأْسًا من ٱلْغَنَم هديةً مِن ٱلْعَروسِ ٱلْكَريمةِ .

وسعِدَتْ خديجةُ بتمامِ زواجِها من زَيْنِ رِجَالِ قريش وأَفْضَلِ الناسِ أَجْمَعين .

خديجة الزوجة

ضَرَبَت السَّيِّدةُ خَديجةُ أَجَلَّ الأَمْثالِ وأَرْوَعَها على حُبِّها لزَوْجِها وإيثارِها لما يُحبُّهُ . فإنها عِنْدَما رأَتْ حُبهُ لمَوْلاها زَيْد بن حَارِثَة وهَبَتْهُ له عن طيبِ خاطرٍ وكَرَمِ نَفْسٍ .

ولما آنَسَت مِنْه الرَّغْبَة فى أَنْ يَكْفُلَ أَحَدَ أَبناءِ عَمِّهِ أَبى طَالِبٍ رحَّبَتْ وأَفْسَحَت للإمام (علىّ) رضى اللَّهُ عنْهُ وكرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فى قَلْبها مَكانًا كبيرًا ورَعَتْهُ بعيْنِ الحُبِّ والرِّعايَة ، فَخَفَّفتْ بذلِكَ عنْ أَبى طالِبٍ . وجَعَلَت زَوْجَها قريرَ الْعَيْنِ بما قدَّمهُ لعَمِّه أَبى طالِب عرْفانًا بالجميل .

وبهذه الطريقَةِ قدَّمَت السَّيِّدةُ الطَّاهِرَةُ (لعلىّ) و (زَيْد) الفُرصَةَ الثمينةَ لدِراسَةِ أَخلاقِ زَوجِها مُحمَّد ﷺ . فلـمَّا بُعِثَ بالدينِ الخاتَمِ ودَعَاهُما إلى الإيمانِ كان الإمامُ علىٌّ وزيدُ بنُ حارِثَةَ خَيْرَ سَنَدَيْنِ ومِنْ أَعْظَمِ الأَرْكانِ المحيطَةِ بالنبىّ ﷺ .

أولاد النبي ﷺ من السيدة خديجة

تزَوَّجَت السَّيِّدةُ خَديجةُ بالأَمين ، فتم هَناؤُها . ولكنَّ صَرْحَ الزَّوْجية ما زَالتْ تنْقُصُهُ ركيزةٌ هامَّةٌ هى وُجود الذُّرِّيَّةِ التى تُكمِّلُ أَرْكانَ الزواجِ السعيد

إنَّ وُجودَ الأَطْفالِ فى المَنْزِلِيُضْفي جوًّا مِنَ المَرَحِ والْغِبْطَةِ على الأَبَوَيْن .
ويُبْعِد شَبَحَ المَلَلِ من أُفُقِ الحياةِ الزَّوجيَّةِ . وابْتِسَامَةُ الطِّفْل تُنْسى الأُمّ
هُمومَها ، والأَب مشاغِله وتُشيعُ الهُدوءَ والصَّفاءَ فى أنحاء المَنْزِلِ .

ومنَّ اللهُ على ذلكَ البيتِ السعيد بالنِّعمَةِ بعد النِّعمَةِ بالمالِ والبَنينَ والبَنات .

فقَدْ حَمَلَت خديجةُ أُولى الثَّمراتِ الطيبةِ لذلك الزواجِ الناجحِ .

ولَمْ يَكُنْ ذلِك بالحَمْلِ الأَوَّلِ لَها ، ولكنَّها كادَت تَطيرُ مِنَ الفَرَحِ عِنْدَما شَعَرَتْ بهِ ؛ لأَنَّه كانَ من خيْرِ الأَزواجِ وأَشْرَفِ الناسِ جميعًا .

وانْتَشَرَ الخبرُ السَّعيد فى أَرجاءِ مَكَّةَ وفى دورِ بنى هاشِم .

واستعدَّت السَّيِّدةُ الطَّاهِرَةُ لاستقبال وليدها الأَوَّل من زوجِها الحَبيب فأَعَدَّت القابِلَةَ والمُرْضِعَ قبلَ أَنْ تَلِدَ وأَعَدَّتْ احْتياجاتِ المَوْلُودِ .

وحانَتْ ساعَةُ المَخاضِ وتحمَّلت السَّيِّدةُ خَديجةُ الآلام بِصَبْرٍ وشجاعةٍ . وتلقّى الأَمينُ خَبَرَ قيامِ زَوْجَتِهِ بالسَّلامَةِ ورأَى وليدَتَه الأُولى . وتلقاها الوالدُ بالبشْرِ والتِّرْحابِ ورَنَا إليها بابْتِسَامةٍ عذْبَةٍ وحَمَلها بين يدَيْهِ ثم اقْتَرَبَ من زَوْجَتِهِ الحَبيبَة وهنأَها بالسَّلامَةِ ثمَّ سَمَّاها (زَيْنَب) .

وذُبِحَت الذبائحُ فرَحًا وابْتهاجًا بِموْلِدِ زَهْرَة بنى هاشم وأَسلَمَتْها أُمُّها للمُرضِعةِ على عادَةِ أَشْرافِ قُرَيْشٍ .

وبعد عامٍ تقريبًا جاءَت الابنَةُ الثانيَةُ فسمَّاها الأَمينُ (رُقَيَّة) .

ثُمَّ تَلَتْ (زَيْنَبَ) و (رُقَيَّةَ) الطفْلَةُ الثالِثَةُ (أُمُّ كُلْثوم) ثم جاءَتْ (فاطِمَةُ الزهراءِ).

وهكذا رُزِقَت السَّيِّدةُ خَديجةُ من زَوْجِها الأَمين بأَربَعِ زهْراتٍ ناضِرَاتٍ أَضاءَت حياتَها ببشاشةِ وجوهِهِن وطلاقة مُحيَّاهُن.

ومضَت الأَعْوام ثُمَّ حَمَلَت السَّيِّدَةُ خَديجةُ للمرَّةِ الخامِسَةِ فابْتَهلَت إلى ربِّها أَنْ يرْزُقَها بغُلامٍ . واستجابَ اللَّهُ لابتِهالاتِ الأُمِّ الطاهِرَةِ وجاءَت الْبُشْرى بمَولد طِفْلٍ جَميلٍ فَفَرِحَ الأَبوان فَرحًا عظيمًا وأسماه الأَمينُ مُحمَّد : (الْقاسِم). وبَعْدَهُ جاءَ (عَبْدُ اللَّهِ) ولُقِّبَ (بالطَّيِّبِ والطَّاهِر) وقيلَ إِنَّهُ لُقِّبَ بهذَيْنِ اللَّقَبيْن لأَنَّهُ وُلِدَ بعد بعْثَةِ النبي ﷺ .

وسَعِدَت الأُمُّ الْعَظيمَة وهي تَنْظُر إِلَى أُسْرَتِها يكْتَمِلُ بناؤُها ويشْتَدُّ عودُها . أَلَمْ تُنْجِبْ من سيِّدِ الخلقِ أَرْبَعَ بناتٍ ووَلَديْن ؟ فأَيُّ شَرَفٍ أكثرُ مِنْ هذا ؟ لقد قَرَّت السَّيِّدةُ خَديجةُ بدَوْحَتِها المُباركَةِ ونَسْلِها الطَّيبِ ، وأَخَذَ سيدُنا مُحَمد الأَمين يَغْرِسُ فيهم الْعادات الحَسَنَةَ والصِّفاتِ الحَميدة .

الزوج الرسول

اجتمعَت الْقُلوبُ على حُبِّ سيِّدنا مُحَمد الأَمين . وبلغ هذا الحبُّ ذِرْوَتَهُ عندما احتَكَمَتْ قُرَيْشٌ في بناءِ الْكَعْبَةِ إلى الأَمِينِ (مُحمَّد) ليَضَعَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ في مكانِهِ ، فكانَ خَيْرَ حَكمٍ وخيرَ هادٍ إلى الرُّشدِ والصَّوابِ .

قالَتْ السيِّدةُ عائِشةُ : وحبَّب اللَّـهُ سُبْحانَهُ إلى الأَمينِ (مُحَمَّد) الخَـلْوَةَ فَلَمْ يَكُنْ شيءٌ أَحبَّ إلَيْهِ مِن أَنْ يخلوَ وَحْدَهُ .

وقالَتْ :

إنَّ أَوَّل ما بُدِيءَ به رسول اللهِ ﷺ من النبوَّةِ حين أَراد اللَّـهُ كرامَته ورَحمَةَ ٱلْعِبادِ بهِ ، الرُّؤْيا الصادِقَة ، لا يرى رَسولُ اللهِ ﷺ رُؤْيا فى نَوْمِهِ إلا جاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْح .

ثم أَخَذَ رسُولُ اللهِ ﷺ يتَعَبَّدُ فى غارِ حِراءِ شَهرًا مِن كلِّ عامٍ ، يُقيمُ هناك اللَّيالى ذوات ٱلْعدَدَ ، على الزَّادِ ٱلْقليل بعيدًا عن لَغْوِ أَهْلِ مَكَّةَ ولَـهوهِمْ .

وكانَ يُطْعِمُ الجائِعَ والـمَساكينَ .

وكانَ إذَا انْتَهى الشهرُ ونَزَلَ إلى مَكَّةَ بدأَ بالكَعْبَةِ يَطُوفُ حولَها سبعًا أَوْ ما شاء اللهُ . ثم يَرْجعُ إلى بَيْتِهِ ، حتى إذا كان الشَّهرُ الذى أرادَ اللهُ تعالى بهِ فيهِ ما أرادَ من كَرَامَتِهِ منَ السنةِ التى بَعَثَهُ اللَّـهُ تعالى فيها ، وذلكَ الشهرُ شَهْرُ رَمضانَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى حِراء كما كانَ يَخْرُجُ للتعبُّدِ ، حتى إذا كانت الليلةُ التى أَكرَمَهُ اللهُ فيها برسالتهِ ورَحِمَ ٱلْعِبادَ بِها ، جاءهُ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ بأَمرِ الله تعالى . قال رسولُ الله ﷺ :

فجاءَنى جبريلُ ، بنَمَطٍ مِن دِيباجٍ فيه كتابٌ : فقالَ : اقْرَأْ ، قُلْتُ : ما أَقْرأُ ؟ قال : فَغَتَّنى بهِ حتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ الموْتُ ، ثُمَّ أَرسلَنى فقالَ : اقْرَأْ ، قالَ : قُلْتُ ما أَقْرأُ . قال فغتَّنى بهِ حتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ المَوْتُ ،

ثم أَرْسَلَنى فقال : اقْرَأْ قالَ : قُلت : ماذا أَقْرَأُ ؟ قال : فغتَّنى بهِ حتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ المَوْت . ثم أَرْسَلَنى ، فقالَ : اقْرَأْ قال : فقلت ماذا أَقرأُ ؟ ما أَقولُ ذلِكَ إلا افتداءً مِنْهُ أَنْ يعودَ لى بمثلِ ما صَنَعَ بى . فقالَ :

﴿اقْرَأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ ورَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بالقَلَمِ * عَلَّمَ الأِنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

ـ سورة العَلَق ـ

قالَ : فقَرَأْتُها ثم انْتَهَى فانْصَرَفَ عنى فكأَنما كُتِبَتْ فى قَلبى كتابًا .

قالَ : فَخَرَجْتُ حتَّى إذا كُنْتُ فى وَسطٍ مِنَ الجَبَل سَمعتُ صوتًا من السماءِ يقُول :

(يا مُحَمد ، أنت رسولُ اللهِ ، وأَنا جِبريلُ).

وكانَ هذا إيذانًا بأَنَّ مُحمدًا (الأَمينَ) ، ومُحمدًا (الزَّوج) الوفى ، أَرسله اللهُ رحمةً للعَالَمين ، وهدايةً للناسِ أَجمَعِين .

وصَدقَ اللهُ ٱلعَظيم :

﴿يا أيها النبيُّ إنّا أرسلنَاكَ شاهِدًا ومُبشِّرًا ونَذيرًا * ودَاعِيًا إلى اللهِ بإِذنهِ وسِرَاجًا مُنيرا * وَبَشِّرِ المُؤْمِنينَ بأَنَّ لَهُم مِن اللهِ فَضْلاً كَبيرا * وَلا تُطِعِ ٱلْكافِرينَ والمُنافقينَ ودَعْ أَذَاهُمْ وتَوَكَّل علَى اللهِ ، كَفَى باللَّـه وَكيلا﴾ .

ـ سورة الأَحزاب ـ

الزوجة المخلصة المجاهدة

انصَرَفَت السيدةُ خَديجةُ لإدارَةِ بَيْتِها والْقيامِ بأَعباءِ المَنْزلِ على كَثْرَتِها وإرهاقِها وَهى جِدُّ سَعيدَة بِذلك تَقومُ بهِ فى حبّ وإخلاصٍ وتَفانٍ . وأَخَذَتْ تُشرفُ على تَرْبيَةِ أَولادِها . وتقومُ برعايَتِهم وتلْبيَةِ احتياجَاتِهم .

وعَمِلَت السَّيِّدةُ خديجةُ كثيرًا لتوفرَ لزَوْجِها الْعَزيز المكانَ الهادِئَ وبخاصةٍ بعد أن لاحَظَتْ ميلَهُ للتحنث وحبه للعُزْلةِ والتَّأَمُّل .

وفى يومٍ مِن الأَيامِ الخالِدَةِ عادَ الرسُولُ إلى زَوْجَتِه يرْجُفُ وهُوَ يَقول :

«زمِّلُونى زمِّلُونى» ، دثِّرونى دثِّرونى» .

فاسْتَوْضَحَت مِنه الأَمرَ .

فقالَ لها :

يا خَديجةُ لَقَدْ خَشيتُ على نَفْسى .

وقالَتْ لَهُ الزَّوجَةُ الحَبيبةُ بملءِ ثِقَتِها :

(كلا يا ابن الْعَمِّ واللَّهِ ما يُخْزيك اللَّهُ أَبدًا أَبْشِر واثْبُت فإِنَّك تَصِلُ الرَّحِم ، وتَحملُ الْكَلَّ ، وتَقْرى الضَّيْفَ ، وتكسِبُ المَعْدومَ ، وتَصْدُقُ الحَديثَ ، وتُعينُ على نَوائِب الحقّ ، إننى لأَرجو أن تَكونَ نَبىّ هذِه الأُمَّة).

واطمَأَنَّ فؤَادُ النبيّ أمامَ هذا التَّثبيتِ وعاودَتْه سَكينتُهُ أمامَ تَصْديق زَوْجتِهِ وإيمانِها بما جاء بهِ .

وخرَجَت السَّيِّدَةُ خَديجةُ مع زوجها الحبيب فَذَهَبَتْ إلى ابن عَمِّها وَرَقَةَ بن نوفَل وكانَ قد تنصَّر فى الجاهِلِيَّةِ وكانَ يَكْتُب الخطَّ العربى ، وكَتَبَ بالعِبْرِيَّةِ مِنَ الإنْجيل ما شاء اللهُ أَنْ يَكْتُبَ .

فقالتْ لهُ :

اسمَعْ مِن ابنِ أَخيكَ .

فقالَ :

يا ابنَ أَخى ما تَرَى ؟

فأَخْبَرَهُ . فقالَ وَرَقةُ :

(أَبْشِر يا مُحمد فهَذا النامُوسُ الذى نَزَلَ على مُوسَى وإِنَّكَ لَنبىٌّ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَلَتُكَذَّبَنَّ ، ولتؤْذَيَنَّ ، ولتُخْرَجنَّ ولَتُقَاتَلَنَّ ، ولئِن أَنا أَدركتُ ذلكَ اليَوْم لأَنصُرنَّ اللَّـهَ نصرًا يَعْلَمه) . ثم قَبَّلَ رَأْسَهُ .

فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ :

أَوَ مُخْرِجِىَّ هُمْ ؟!

فأَجابَ وَرَقَةُ :

(نَعَمْ . لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَط بِمِثْل ما جِئْتَ بِهِ إلا عُودىَ ليتَنى أَكونُ فيها جَذعًا ، ليتنى أَكونُ حيًا) .

وعادَ الرسولُ ﷺ ومَعَهُ زَوْجَتُهُ السَّيِّدَةُ خَديجةُ رضى اللهُ عنْها إلى ٱلْبَيتِ النبوىِّ ٱلْكَريم .

وآمَنَتْ خَديجةُ ، فكانت أَوَّلَ مُسْلِمةٍ دَخَلَت فى الإِسْلام . وكانَت أَوَّلَ مَن آمَنَ باللهِ وبرَسولِهِ ، وصَدَّق بما جاءَ بِهِ . فخفَّف اللهُ بذلِكَ عَنْ نبيِّهِ ﷺ . لا يَسْمَعُ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهَهُ مِنْ رَدٍّ عليه وتكذيبٍ لَهُ ، فَيُحْزِنهُ ذلك إلا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ إذا رَجَعَ إلَيْها ، تُثَبِّتُه وتُخَفِّف عَنْه ، وتُصدِّقُه وتهوِّن عليهِ أَمْرَ الناس .

قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ :

يا خديجَةُ ، إنَّ جبريل يقْرأُ عليك السلامَ من الله ربِّ ٱلْعالَـمين .

فقالَتْ السَّيِّدةُ خَديجَةُ رضىَ اللهُ عَنْها :

«اللهُ السلامُ ، ومِنْهُ السلامُ ، وإليه يَعودُ السلام ، وعَلى جِبريلَ السلام» .

وأَخَذَت آياتُ ٱلْقُرْآنِ تَتْرَى وتَتَابع :

﴿يا أَيُّها الـمُدَّثِرْ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وربَّكَ فَكَبِّرْ * وثِيابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْزَ فاهْجُرْ * ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلِرَبِّكَ فاصْبِرْ﴾ .

ومن ذلِكَ الحين بَدأَ الرسولُ ﷺ حياتَهُ الجَديدةَ الحافِلَةَ بالبَركاتِ والـمَشقَّاتِ .

ووقَفَتِ السَّيدةُ خَديجَةُ إلى جِوارِهِ تُسانِدُهُ وتُؤازرُهُ وتعاونُهُ .

حــوار بين زينب وفاطمـة

وفى غبطةٍ وابْتِهاجٍ قالَتْ زَيْنَبُ لفاطِمَةَ :

(أوَ مَا يسرّكِ يا أُخْتَاهُ أنّكِ بنت نبىّ هذِهِ الأُمَّةِ ؟)

وأَجابَتْ فاطِمَةُ :

(كلَّ السُّرور يا أُختاه !).

وآمَنت (زينبُ) و (رُقيةُ) و (أمُّ كُلْثُومٍ) و (فاطمةُ) . رِضوانُ اللهِ عليهن .

خديجة تشترك فى الدعــوة إلى الله

أخذت السيدةُ خديجةُ رضىَ اللهُ عنها تدعو إلى الله بِقَوْلِها وعملها .

فهى المرأةُ المؤمنةُ الصادِقةُ .

وهى المرأةُ السَّخيَّة الوَفية .

وهى المرأة الشُّجاعَة الـمُهَذَّبةُ .

وهى المرأة الْفصيحةُ الْبَليغةُ .

وكلُّ هذِهِ الصِّفاتِ جَعَلَتْها تَدعو إِلى الإسلامِ ، وكانت دعْوَتُها تَلقي قبولاً حَسنًا .

ولقدْ وقفت السيدةُ خَديجةُ مع رسولِ اللهِ ﷺ فى أوقات الشِّدةِ والمحْنةِ .

وقفت معه عند حصارهِ مع المسلمينَ فى شِعْبِ أَبى طالب مَوْقفًا كله

حَنان ورِفْق ، وعزْمٌ وقوة . وكانت بِحقٍّ الزوجةَ التى تُقدِّر الأُمورَ حقَّ قَدْرها ، وتَبْذُلُ من العطاء ما يُناسِبُها ، وكانت تُؤَازِرُ النبىَّ ﷺ بكُل ما تَمْلِكُ مِن طاقاتٍ .

موت القاسم وعبدالله «الطيب أو الطاهر»

اختار اللهُ إلى جوارِهِ ابنىْ مُحمد ﷺ ، وهُما ٱلْقاسِم وعبدُ الله ، وكانا فى وَقْتِ الطُّفولة .

ولاشَكَّ أَنَّ فَقْدهما ترك عند الأَبِ النبى ، وعند الأُمِّ المُجاهدة حُزْنًا عميقًا . ولكن الصَّبْر والاحْتسابَ كانا شأْنَهُما دائمًا فى كلِّ شُئونِ الحَياة .

السنوات الأُولى لدعوة الإِسلام

عاصَرَت السِّيدةُ خَديجةُ رضى اللهُ عَنْها ٱلْفَتَراتِ ٱلْعَصيبة التى عاناها النبىُّ ﷺ والمُسْلِمون فى صَدْرِ الإِسْلام .

وكانَتْ هذه الفَتْرةُ مَمْلُوءةً بالأَهْوال وٱلْكِفاح .

رأَت السَّيدةُ (خَديجةُ) أَوَّل شَهيدةٍ فى الإِسْلام وهى السَّيدةُ (سُمَيَّة) زَوْجةُ (ياسِر) وأُمّ (عمَّار) . رضى اللهُ عنهم أجمعين .

وتَرَكَ هذا المَنْظَر أَثَرًا كبيرًا فى نفْسِ المجاهِدَة ٱلْكَبيرَةِ .

وشاهدَت المُسلمينَ المُجاهدينَ والمُسْلماتِ المُجاهِدات وهم يُهاجِرون الهجرةَ الأُولى إلى الحَبَشَةِ ، وكانَ فيهم بِنْتها (رقيَّة) زَوْجَةُ (عُثْمَانَ) بْن عفَّانَ رضى اللهُ عَنْهُ وعن زوجتِهِ .

وكانَ لهذا المَنْظَرِ أَيضًا ولهذا ٱلْوَداعِ أَثرٌ كبيرٌ فى نَفْسِ المُجَاهِدَةِ ٱلْكبيرَةِ .

وشاهَدَت المُسلمة المُبْتلاةَ «زِنِّيرَة» ، وكيفَ فَقَدَتْ بَصَرها بسببِ تَعْذيب ٱلْكُفَّار لَها ، وكيفَ صَبَرَت واحتَسبت ثمَّ كيْف ابتهجَت عندما رَدَّ الله علَيْها بَصَرها بسببِ إِيمانِها وتوكلِها على الله حق التَّوكل .

وكانَ لهذا المَنْظرِ أَثرٌ كبيرٌ فى نَفْسِ المُجاهِدَةِ ٱلْكَبيرَة .

وشاهَدت الأَثَر ٱلْعَظيم الذى تَرَكهُ إِسْلام حَمْزَة بن عَبْدالمُطلب ، والأَثر ٱلْعَظيم أَيضًا الذى أَوجَدَه إِسْلام عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضى الله عنه .

وكانَ لهذا كُله أَثرٌ كبيرٌ فى نَفْس المجاهِدَة ٱلْكَبيرَةِ .

وشاهدَتْ قبلَ ذلِكَ كُلِّهِ وبعدَ ذلِك كُلِّهِ زَوْجَها ٱلْوَفىّ الأَمين رَسولَ الله ﷺ وهُوَ يدعو إِلى اللهِ سِرًا أَوَّل الأَمْر ثمَّ يَصْدَع بما يُؤْمَرُ بَعْدَ ذلِك ، ثمَّ يَتعرَّض للبَلاءِ وهو صابر ثمَّ يَزْدادُ ٱلْبلاءُ فيزداد صَبْرُهُ ، ويَزيد الإِغْراء فيَزيد رَفْضُه .

ويُقْسِم هذا القَسَم المؤَكَّد :

(واللهِ يا عمٌّ لو وَضعوا الشمْسَ فى يَميني ، وٱلْقَمَرَ فى يَسارى على أَنْ أَتْرُكَ هذا الأَمْرَ ما تَركْتهُ حتى يُظهِرَهُ اللهُ أَو أَهْلِك دُونَه) .

وتزداد السَّيدةُ خديجةُ ثباتًا على ثباتِها ، وتأْكيدًا على تأْكيدها ، فتقفُ بجوار رسولِ اللهِ ﷺ فى النعْماء وٱلْبأْساء راضيةً مُطْمَئنةً ، صابِرةً مُحْتَسِبَةً .

ولكن حِصارَ المُسْلمين ومَعَهُم النبيُّ ﷺ فى شِعب أَبى طَالِب هذه ٱلْفَتْرَة ٱلْقاسِيَة من الزَّمَن ، ضاعَفَ الآلام فى نَفس المجاهِدَة ٱلْكبيرة ، فزادَت ضراعَتُها إلى الله عزَّ وجلَّ أن يُفَرِّج ٱلْكَرْبَ عن المُسلمين ، ويُثَبِّت أَقْدامَهم ، وأَنْ يُؤَيِّد رسولَ الله ﷺ ، ويُقَوِّيَهُ على مُواصَلَةِ دعْوَة الحق ومُقاوَمَة ٱلْكفَّار الطُّغاة .

وكانت السيِّدة خَديجةُ رضى الله عنها تَجد أَعظم السَّلْوَى وأَرْوَع آياتِ التَّثْبيت فى الإِيمانِ الذى تَسْتَمِدُّه مِن زوجها رسول الله ﷺ وفى آيات ٱلْقُرآن التى كانت تَتَتابَع فى النُّزول فَيَزْداد المُؤمنون إِيمانًا وهدًى ويَقينًا .

* * *

اللحظات الأَخيرة

وأَحسَّت السيِّدةُ خَديجةُ رضى اللَّهُ عَنْها بِمُقَدِّمات المَوْت تَتجمَّعُ .

مَرِضتْ ولازَمَت ٱلْفِراشَ ، واجْتَمَعَ حَوْلَها بناتُها الثَّلاث : (زَيْنَبُ) و (أُمُّ كُلْثوم) و (فاطِمةُ) ، أَمَّا بِنتُها الرابعةُ السَّيدة (رُقَيَّة) فكانَت فى الحَبَشَةِ .

ونظَرَت السَّيدةُ (خَديجةُ) إلى زَوْجها رسولِ الله ﷺ النَّظرَةَ الأَخيرةَ .

ولا شك أنَّها كانت لَحْظَةً عَميقةَ الحُزْنِ ، شَديدة الأَسى .

ولكن رسولَ الله ﷺ بشَّرَها باللِّقاء مَعَها في الجنَّةِ .

وصَدَقَ الله ٱلْعَظيم حَيْثُ يَقول :

﴿سابِقوا إلى مَغْفِرَةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرْضُها كعَرْض السَّماءِ والأَرْضِ أُعِدَّتْ للذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِهِ ، ذلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ والله ذو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظيم﴾ .

ـ سورة الحديد ـ

وهطلت دُموع الرَّحْمة مِن النبي ﷺ وفاض قلْبُهُ بالحُزْنِ ٱلْعَميق .

وبَكَتْ زَينَب وأُمُّ كُلْثوم وفاطِمة مع الـمُؤْمِنات الصابرات الـمُحْتسباتِ .

وفَقَدَتْ مَكَّةُ سيِّدةَ نساءِ زمانِها : السَّيِّدة خديجةَ بنت خُوَيْلِد .

وذَهَبَت النَّفْسُ الـمُطْمَئنَّةُ إلى ربِّها في ٱلْوقْتِ الـمَعْلوم وبَعْدَ انتهاءِ الأَجَل الـمَحتوم .

﴿يا أَيَّتُها النَّفسُ ٱلْـمطْمئِنَّة ٱرْجِعي إلى ربِّكِ راضيةً مَرْضِيَّةً فَٱدْخُلي في عِبادي وٱدْخُلي جَنَّتي﴾ .

وتُوفِّيت السَّيدةُ خَديجةُ رضى الله عَنْها قبل الـهِجْـرَةِ بثلاثِ سَنواتٍ تَقْريبًا .

* * *

وكانَ مَوْتُ السَّيدة خَديجةَ وأَبي طالِبٍ في عامٍ واحدٍ ؛ ولهذا سمَّاه ٱلرسول ﷺ عامَ الحُزْن .

وتَتَابعَت على رسول الله ﷺ ٱلمصاعِبُ بموتِ خَديجةَ وعمّه أَبي طالِب وكانَ لَهُ عَضُدًا ، وَحِرْزًا في أَمْرِهِ ، ومَنعَةً وناصِرًا على قَوْمِهِ .

ونالَت قُرَيْشٌ مِن أَذَى رسول الله ﷺ مَا لَمْ تَكُن تَنالُه في حياةِ خَديجة وعمه أَبي طالِب .

وكانَ عُمر السَّيدة خَديجةَ عندَ ٱلْوَفاةِ خمسةً وستِّين عامًا . ودُفِنَتْ بالحجُون . رضي الله عنْها وأَرْضاها .

وفـاء النبي ﷺ

انْتَقَلَت السَّيِّدةُ خَديجةُ رضي الله عَنْها إِلى جوارِ ربِّها ولكن طَيْفَها بقي في أَرْكانِ مَنْزِلِها ٱلْعَظِيم الذى شَهِدَ أَعظم أَحْداثِ الإِسْلام .

وخلَّفَتْ لدى زَوْجِها ٱلحَبيب رسول الله ﷺ أَطْيَبَ ٱلآثارِ وأَعْظم الذكْرياتِ .

ولَقَدْ كانَتْ السَّيدةُ خَديجةُ ماثِلَةً أَمامَ عَيْنيْ رسولِ الله ﷺ حتَّى مع زَوْجتِهِ الشَّابَّةِ ٱلحَسْناءِ السَّيِّدة عائِشَة رضي الله عَنْها فقَد جاء على لِسانِها :

(ما كُنْت أَغارُ من زَوْجَةٍ مثلما كنْتُ أَغار من خديجَةَ مَعَ أَنني لَمْ أُدْرِكْها لِكَثْرَةِ ما كانَ رسولُ الله ﷺ يَذْكُرُها) .

وقد ثبتَ أن الرسولَ ﷺ لم يَتزَوَّج على السَّيِّدة خَديجَة رضى الله عنْها فى حياتِها .

وعنْدَما قالَتْ لَهُ السَّيدةُ خَوْلَةُ بنتُ حَكيمٍ :

(كأَنك يا رَسولَ الله تَجد لفِراقِ خَديجةَ بنت خُوَيْلِد وحْشَةً ؟) .

أَجابها :

(أَجَل واللَّـهِ ، كانَت ربَّة ٱلْبيْتِ وأُمَّ ٱلْعِيال) .

وعِنْدَما عَرَضَت عَلَيهِ ٱلزَّواجَ سَأَلَ فى رِفْقٍ :

(ومَن بَعْدَ خَديجَةَ ؟!) .

ولم تَسْتَطِع السَّيِّدةُ (فاطِمَةُ) وأُخْتُها (أُمُّ كُلْثوم) أَن تمحوَا حزنَ أَبيهما على أُمِّهما بتَفانِيهما فى خدْمَتِهِ وَرِعَايَةِ شُئونِهِ وإِنْ خَفَّفَتا عَنْهُ بَعْضَ ما يَجدُ من حِدَّةِ ٱلْفِراقِ .

وكان رَسولُ الله ﷺ يَذكُر السَّيدةَ خديجَةَ فيقول :

(آمَنَت بى حِين كفَر الناسُ ، وصَدَّقَتْنى إِذ كَذَّبَنى الناسُ ، وواسَتْنى بمالِها إِذْ حرَمنى الناسُ ورَزَقَنى الله مِنْها ٱلْوَلَد دُونَ غَيرِها من النساء) .

وكان ﷺ إِذا ذَبَحَ شاةً قال :

(أَطْعِموا صَديقات خَديجَةَ) .

ويروى لنا سيدنا عبدٱلله بنُ عَباسٍ فيقول :

(خَيْرُ نِساء ٱلْعَالَمين أَرْبَعةٌ : مَرْيَمُ ٱبْنَة عِمْرانَ ، وآسِيَة بنْتُ مُزاحِم

ٱمْرأَة فِرْعَون ، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلد ، وفاطِمَة بنتُ مُحمدٍ) .

وكانَ النبي ﷺ إِذَا دَخَلَت عليه ٱمْرَأَة كانَتْ تدخل عليْه أَيَّام خديجة هشَّ لها وبشَّ وسرَّ لرؤيتِها ثم يقُول :

أَكرموها فَقَدْ كانَت خديجةُ تُحِبُّها .

ذلِك هو ٱلْوفاء النادِرُ الذى تَمتَّعَتْ به خديجةُ رضى الله عنهَا فى قَلبِ زوْجها النبى ٱلْكَرِيم إِلى آخر لحظاتِ حياتِهِ .

رحم ٱللهُ خديجةَ بنْتَ خُوَيْلِد ٱلزَّوْجةَ ٱلوفيَّةَ ، والـمُؤمِنةَ التقِيَّةَ ، وٱلكَرِيمةَ السَّخِيَّةَ ـ آمين .

* * *

بنـــاتها

١ ـ السيدة (زينب) بنت النبى ﷺ

أَكْبَرُ بَناتِ النَّبى ﷺ وأَوَّلُ مَن تَزَوَّجَ مِنْهُنَّ .

وُلِدَتْ رَضِىَ ٱللهُ عَنْها قَبلَ ٱلْبعْثَةِ بِعَشْرِ سِنِينَ وَتَزَوَّجَها ابنُ خالَتِها أَبو ٱلْعاصِ بنُ الرَّبيع .

وأُمُّهُ هَالةُ بِنتُ خُوَيْلد .

أَسْلَمَتْ السَّيِّدةُ (زَينبُ) رَضِىَ ٱللهُ عَنها مَعَ أُمِّها السَّيدة (خَديجةَ) رَضِىَ اللهُ عَنها ، وهاجَرَت إِلى ٱلمدينةِ .

فَلَـمَّا أَسلَم زَوجُها فى ٱلـمُحَرَّمِ مِن ٱلْعامِ السابعِ مِن هجرة

النبىِّ ﷺ رَدَّ ٱلرَّسولُ ﷺ زَوْجَتهُ السَّيدةَ زَينبَ رَضِىَ ٱللهُ عَنها إليْه .
وَكانَ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَهُما الإِسْلامُ .
وقد أَنْـجَبَت السَّيِّدةُ (زَينبُ) مِن زَوجِها أَبى ٱلْعاصِ (عليًا) وماتَ فى حياةِ والِدهِ . و (أُمَامَةَ) عَاشَت حتَّى تَزوَّجها الإِمامُ (على) كَرَّمَ اللَّـهُ وَجْهَهُ بعدَ السَّيِّدةِ (فاطِمةَ) رَضِىَ اللَّـهُ عَنها .
وتُوفِّيَت السيدةُ (زَينبُ) رَضِىَ اللَّـهُ عَنها فى أَوائِلِ ٱلْعام الثامِنِ مِنَ ٱلـهِجرَةِ النَبَوِيَّةِ . وَقَدْ حَزِنَ عَليْها رَسولُ اللهِ ﷺ وزَوجُها . ثُمَّ تُوُفِّىَ زَوْجُهَا بَعدَها بقَليل .

* * *

٢ ـ السيدة (رقيـة) رضى الله عنها بنت النبى ﷺ

وُلِدَتْ بَعدَ أُخْتِها زَيْنَبَ بثلاثِ سَنواتٍ .
تَزَوَّجتْ عُتبةَ بن أَبى لـهبٍ ثُمّ فارَقَها بَعدَ بَعثةِ النبىِّ ﷺ وَقَبلَ أَنْ يَدْخُلَ بِها ..
ثُمَّ تَزَوَّجت الصحابىَّ الجليل سَيِّدَنا عُثْمانَ بنَ عَفَّان رَضِىَ ٱللَّـهُ عَنه وهاجَرَت مَعهُ ٱلهجْرَتين إلى ٱلحَبَشَةِ ثُمَّ هاجَرت إلى ٱلـمَدينةِ .
وقَدْ مَرِضَتْ قَبلَ خُروجِ ٱلرَّسول ﷺ إلى بَدْرٍ .
وقَدْ تُوفِّيَتْ رَضِىَ ٱللَّـهُ عَنها فى أَثناءِ ٱلْغَزْوَةِ ٱلْعظيمة وحزِنَ ٱلرسولُ ﷺ عليها وزَوجُها حُزنًا عَظيمًا .

٣ ـ السيدة (أُم كلثـوم) بنت النبي ﷺ

هَاجَرت رَضِىَ ٱللَّـهُ عَنها مَعَ أُخْتِها فَاطمةَ إِلى ٱلمدينة ٱلـمُنوَّرةِ . وتَزَوَّجَت سَيِّدنا عُثْمانَ بنَ عفَّانَ بَعدَ وفاةِ أُخْتِها (رُقيَّة) سَنةَ ثَلاثٍ مِنَ ٱلهجرَةِ فى رَبيعٍ الأَوَّل . ولَمْ تُنجبْ مِنهُ .

وتُوفِّيت رَضِىَ ٱللهُ عَنها فى شَعبان من السَّنةِ التَّاسِعَةِ لِلهجرَة .

* * *

٤ ـ السيدة (فـاطمـة) بنت النبي ﷺ

وُلِدَتْ قَبلَ ٱلبَعثَةِ بِخَمْسِ سِنينَ فى يَومِ التحكيم عندَ بِنَاءِ ٱلْكَعْبَةِ ، وكانَت تُلَقَّبُ بِالزهرَاء وقَدْ هَاجَرَتْ مَعَ أُخْتِها أُم كُلْثومٍ إِلى ٱلـمَدينةِ ٱلـمُنوَّرَةِ .

وكانَتْ صُغرى بَناتِ النبيِّ ﷺ وأَحَبُّهُنَّ إِليْه .

قالَ رَسولُ ٱللهِ ﷺ : (سيِّدَةُ نِساء أَهلِ الجنةِ فَاطِمَةُ) .

وقَدْ تَزَوَّجَها ٱلإِمامُ (عليٌّ) بن أبي طالِبٍ كَرَّمَ ٱللهُ وَجْهَهُ ولَمْ يَتَزَوَّجْ عَليها حتَّى تُوفِّيَت .

وقَدْ أَنْجَبَتْ مِنه : (ٱلحَسَنَ) و (ٱلحُسينَ) سِبْطَىْ رَسُول ٱللهِ ﷺ ورَيْحانَتَهُ وسَيِّدَىْ شَبابِ أهلِ ٱلجنةِ ، و (مُحْسنًا) وقدْ تُوفِّى صَغِيرًا و (زَينبَ) ٱلكُبْرى و (أُمَّ كُلْثُومٍ) .

وٱنقطَعَ نَسلُ رَسولِ ٱلله ﷺ إِلا مِن فَاطِمَةَ .

وتُوفِّيَتْ السيدَةُ (فاطِمَةُ) رَضِيَ ٱللَّـهُ عَنها بَعدَ النبيِّ ﷺ بسِتَّةِ أَشْهُرٍ فَحَزِنَ عَلَيْها الإمامُ عَلى حُزنًا شَديدًا .

وسَنفردُ لَها رسالَة قَادِمَة إنْ شَاءَ ٱللَّـهُ وٱللَّـهُ وَلىُّ التَّوْفِيقِ .

وَقَدْ ذَكرنا أَنَّ (ٱلْقاسِمَ) و (عَبدَٱللَّـهِ) ٱبنَى النبيِّ ﷺ ماتا فى الطُّفُولَةِ .

أَمَّا وَلَدُهُ (إِبْرَاهِيم) رَضِيَ ٱللَّـهُ عنهُ فإِنَّهُ مِنَ السَّيِّدَةِ (مَارِيَةَ) ٱلْقِبْطِيَّة تُوفِّيَ فى حياةِ سَيِّدنا مُحمدٍ ﷺ .

* * *

أمّ حبيبة

أم المؤمنين
رملة بنت أبي سفيان
رضي الله عنها

(توطـئة)

ما أَحْوج مسلمات اليوم (فتياتٍ ونساءً) أَن يَقْرأْن سيرة «المسلمات المؤمنات» لِيُدْرِكْن البَوْنَ الشاسع بينَهُنّ وبين الرعيل ٱلأَوَّل الذى تحمَّل مسؤُوليته فى حياة ٱلأُمة كاملةً ، وأَدَّىٰ قسطَه من الواجب كاملاً ، والذى ماكان يُلهيه عن جدِّية الحياة زُخْرُف أو بَهْرَج ، بل اضطلع بالعِبْءِ يجاهد الفتنة والزَّيغ والضَّلال .

فكانت حياتهنّ ـ رضى ٱللّه عنهن جميعًا ـ مصابيح تشعُّ هُدىً ونورًا فتضىء الكون كلَّه ، وتعطِّره شذىً طيّب النَّشْر يلفُّهُ من أقصاه إلى أَقصاه أزلاً وأَبداً .

لقد كُنّ فى ميدان ٱلإيمان أَصْلَبَ من شُمِّ الجبال .

وكُنّ فى بيوتِهِنّ (زوجاتٍ وأُمهاتٍ) أخلدَ من التاريخ .

وكُنَّ فى مرافق العلم والمعرفة أساطين لصروحٍ شامخة .

وكُنَّ فى ساحاتِ النضال والوغى فارساتٍ فُقْن الرجالَ إقدامًا .

فإليكِ يا فتاتى نَسوقُ المَثَلَ والعِبْرة ، وما يعتبر إلا أولو ٱلأَبصار .

(فى بيت أبى سفيان)

وُلِدَت «رَمْلة» فى العام الخامس والعشرين قبل ٱلهجرة ، أى قبل مبعث النبى ﷺ بثلاث عشرة سنة .

والدها أَبو سفيان (صخر بن حرب بن أُمية) ، جمعت إلى رفعة

النّسب والحسب ، الغنى الوافر والجمالَ الباهر ، فكانت محطّ ٱلأَنظار ، ووَدّ أَكثرُ الشّبابِ المكّى أَن يتخذها زوجةً له ، وتنافسوا عليْها ، وكان لمكانة والدها وزعامتِهِ فى قريش أَثَرٌ كَبيرفى تلك الرغبة التى تملكت الشُّبان .

وجاءها «عُبَيْد ٱللّه بن جحش» خاطبًا ، وكان شابًا مرمُوقًا يتمتع بالوسامة ، والجاه العريض ، والحسب الرفيع ، أَضف إلى ذلك تضلعه فى علوم الديانات وأُصولها ، فقد كان مُلازِمًا لورقة بن نوفل الذى كان قاب قوسين أو أَدنى من التنصُّر ، والذى كان من مُتَحَنّفي الجاهلية ، راغبًا عن عبادة الأصنام وٱلأَوْثان ، كارهًا لها ، مستخفًا بأَصحابها .

فقبله «أَبو سفيان» وزوّجهُ مِنْ «رَمْلة» .

(فى بيت الزوجية)

كانت «رملة» فتاةً قُرَشِيَّةً ناضِجَةَ الفِكْر ، عاقِلَةً مُدْركة ، على قِسْطٍ وافرٍ مِنَ العِلْم وٱلمعرفة ، تَقْرأُ وتكتب ، فكانت مع زوجها «عبيدٱللّه» على خَيْرِ ما يكون الزوجان تفاهمًا ومَحبَّة ، إِن عرَض لأَمرٍ من ٱلأُمور أَبْدَت رأْيًا ناضجًا وحُكْمًا صائبا .

ومَضَت بهما ٱلأَيّام ... حتى كانت نبوَّة «محمد بن عبد الله» ﷺ ، وتأَثّر بها «عبيدٱللّه» تأَثّرًا سَطْحِيًا لامَسَ بعض جوانِب نَفْسه ، إِذْ خَضَعَ لمؤَثّراتِ قرابته مِن رسول ٱللّه ﷺ ، وللكلماتِ التى مَدَح بها «ورقةُ بن نوفل» نبُوَّةَ «محمدٍ» .

(إلى الحبشة)

هاجر «عُبيدٱلله» إلى ٱلحبشة ومعه زوجتهُ «رملة» مع من هاجر من ٱلمسلمين . وما كادت قدماهُ تطأُ أرض «النّجاشي» حتى عاوده ٱلحنين إلى ٱلماضى ، إلى بعض نصرانيته التى كانَ عليها .

وحدث أن استيقظت «رملةُ» يومًا على حُلمٍ مُزعجٍ رهيب ، فقد رأت زوجَها «عُبَيْدالله» بوجهِ غيرِ وجههِ الحقيقي ، رأته دميمًا بعد أن كان وسيما ، وقبيحًا بعد أن كان جميلاً فاستعاذت بالله من ذلك .

وبينا هى فى شئونها الخاصة مُنْشغلة أتاها «عُبَيْدالله» مُعْلنًا نصرانيَّته داعيًا إياها إلى مشاركتِهِ ، فأبت واستكبرَت ولاذت بإيمانها ، وأدركت مغزى الحُلْم الذى رأته فى ليلتها ، فحدَّثت «عُبيدالله» بذلك ودَعَتْهُ إلى الثبات على ٱلإيمان وٱلإسلام ، فرفض وأَصَرَّ على الرفض ، وخرج إلى جماعة ٱلمسلمين يقول لهم : فقَّحْنا وصأْصَأْتُم أى أَبْصَرْنا وأنتم ما زلتم تلتمسون البَصَر ولم تُبْصِروا بعد .

وأَكَبّ على الخمر يعبُّ منها حتى الثمالة ، واستمرَّ على ذلك أيامًا حتى قضى .

(الأَرملة المهاجرة)

وقضتْ «رمْلةُ» أَيّامَها فى ديار ٱلهجرة بين عذابْين : عذابِ البُعْدِ عن الأَهل والوطن ، وعذابِ الترمُّل وفقد المعيل ، ولكنها بما أُوتيت

من إيمانٍ عظيم استطاعت أن تصمد فى وَجه المحنة . كما لقيت من إخوانها المسلمين كُلّ عَوْنٍ وسند.

(الرسول الخاطب)

عندما بَعَث رسولُ اللهِ ﷺ كُتُبَهُ إلى الملوك والأُمراء يدعوهم إلى الإسلام بعد هجرته إلى المدينة ، لم ينس الرسولُ العظيمُ فى رسالته إلى النجاشى أَن يَذْكُرَ «رملة» بخير ، وأىُّ خَيْرٍ أَعظمُ من أَن يَخطُبها لنفسه مواسيًا لها فى غُربتها ، مُعزِّيًا لها فى ترمُّلها ؟

لقد حمل «عمرو بن أُميّة الضمرى» إلى «النجاشىّ» ملك الحبشة كتاب رسول اللهِ ﷺ الذى يدعوه فيه إلى الإسلام وقد ضمّنه طلبًا كريمًا هو أن يخطب له النجاشىّ «رملة بنت أَبى سُفيان». فقبل النجاشىّ مهمّة الخاطب وأَرسل إلى «رملة» إحدى جواريه وتُدعى «أَبرهة» تحمل إليها النبأَ السعيد . فصاحت «رملة» قائلةً :

ـ بَشَّرك اللهُ خيرًا .

ثم وكَّلَتْ عنها «خالد بن سعيد بن العاص» لإتمام الزيجة ، فلما كان المساء من ذلك اليوم ، دعا «النجاشى» المسلمين إليه وخطب فيهم فقال :

ـ لقد كتب إلىّ «محمد» أَن أُزوّجه «أُم حبيبة» «رملة بنت أَبى سفيان» فأَجبت إلى ما دعا إليه وأَصدقتُها أربعمائة دينار .

ثم سكب الدنانيرَ بين يدى القوم ، عندئذٍ نهض وكيلُها «خالد بن سعيد» وقال :

ـ الحمد لله ، وأَشهد أَن لا إِله إلا ٱلله وأَن محمدًا عبدُه ورسولهْ أَرسله بالهُدى ودين الحق ليظهره على الدين كُلِّه ولو كره المشركون . أَما بعد ، فقد أَجبت إِلى ما دعا إِليه رسولُ ٱلله وزوَّجْتُهُ من «رملة» (أُم حبيبة) فبارك ٱلله لرسول الله ...

ثم دُفعت الدنانير لخالدٍ فقبضها ، ولما أَراد القومُ الانصراف قال لهم «النجاشى» :

ـ اجلسوا فسُنَّةُ ٱلأَنبياء إِذا تزوّجوا أَن يقدّموا الطعام لمن حضروا الزواج .

ثم دعا بطعامٍ فأَكلوا ثم تفرقوا ...

* * *

لقد استطاع رسول اللهﷺ بحكمته أن ينال بهذا الزواج أُمورًا كثيرة ، ويحقق أَغراضًا عظيمة وأَهدافًا سامية .

فبالإِضافة إِلى المواساة التى لقيتها «أم حبيبة» فاستكانت نَفْسُها بعد قلقٍ ، وهدأَتْ بعد اضطراب ، فقد نال رسولُ اللهﷺ فتحًا عظيمًا على أَكبر عدوٍّ له ولدينه ، على والدها «أبى سفيان بن حرب بن أمية» الذى كان يترأس كُلّ مؤَامرةٍ ومعركة ، ويتزعَّم كل جيشٍ :

ولقد قال «أبو سفيان» عندما علم بأمر هذه الزيجة :

ـ هذا الفحل ـ محمد ﷺ ـ لا يُجْدَعُ أَنْفُه .

وهكذا كان رسولُ الله ﷺ يقضى الأُمور بحكمةٍ عالية وهمة سامية ، لم تكن لتتحرك فيه إلا رغبَتُهُ فى الحفاظ على وَحْدَةِ المسلمين وتماسُكهم ومواساتهم والانتصارِ لهم . فهو أَوْلى بالمُؤمنين من أَنفسهم وأَزواجُهُ أُمهاتهم .

(أم المؤمنين) فى بيت النبوَّة

ولما كان يوم فتح «خيبر» وصل وَفْدُ المهاجرين من الحبشة بعد طول غيابٍ فقال رسول الله ﷺ :

ـ بماذا أفرح ؟ بفتح «خيبر» ، أم بقدوم «جعفر» ؟

وكانت «أُم حبيبة» رضى الله عنها مع الوفد القادم ، فبنى بها رسول الله ﷺ ، وأَقامت فى بيته زَوْجةً تقدّر مسئوليتها ، وتحفظ مكانتها ، وتحرص على إسعاد زَوْجها ؛ وعَرَفَ لها رسولُ الله ﷺ قَدْرَها فأَغدق عليها من فيض حَنانه وحُبّهِ ، ورعايتهِ وَعَطْفِه .

(مع أَبى سفيان وجهًا لوجه)

وليس أَدل على وفائها وإيمانها ودينها من تلك الحادثة المشهورة فى حياتها ، إذ قُدِّر لها أَن تواجه والدها «أبا سُفيان» وجهًا لوجه ؛ هى مؤْمنة وزوجة للنبى ﷺ وهو كافر مشرك ، سيد قريْشٍ بلا منازع ، له رهبةٌ وهيبة .

ولكنها رضى الله عنها ـ تقف مِنْه موقف النِّدِّ للنِّدِّ ؛ لا تخشى أذاه ولا سطوته ، ولا تجزع من سلطانه وجَبَروته ، تعرِّفُهُ مكانَتَهُ بين الإِيمان والكفر بمنتهى رباطة الجأْشِ والسكينة ، وتقول بالفم الملآن :

أبي الإسـلامُ لا أَبَ لى سـواهُ
إِذا افتخـروا بقيسٍ أو تميم

وتُعلن أن ولاءَها لله تعالى ولرسوله لا لأَحَدٍ سواهما .

فقد حَدَث بعد فترة من عَقْد رسول ٱلله ﷺ مع وَفْدِ قريشٍ صُلح «الحديبية» أن نقض حُلفاءُ قريش (بنو بكر) هذا الصُّلْح ، فجاء أحد (بنى خزاعة) حلفاء النبي ﷺ مستجيرًا به ، فَوَعَدَهُ خيرًا وطمْأَنَهُ .

وأدرك «أبو سفيان» زعيمُ قريشٍ مغبَّةَ الأَمر ، واستشعر فى نفسه خطورتَهُ فجهّزَ نَفْسَهُ وقصد إِلى المدينة المنوّرة ليثبِّت مع رسول ٱلله ﷺ العقد ويمدِّدَه .

فلما انتهى إِلى ٱلمدينة دخل على ابنته «أم حبيبة» يوسّطها لدى رسول ٱلله ﷺ ، ثم أراد أن يجلس على فراش النبىّ ، فطوَتْهُ عنه ، فقال لها :

ـ يا بُنَيَّة ، ما أدرى أرغِبْتِ بى عن هذا الفراش ، أم رغبْتِ به عنّى ؟

فأَجابته قائلة :

ـ بل هو فراشُ رسول ٱلله ﷺ وأَنْتَ رجُلٌ مُشْرِكٌ نجس ، ولم أُحبَّ أن تجلس على فراش رسول ٱلله ﷺ

فقال لها :

ـ والله لقد أصابَكِ يا بُنيَّة بعدى شرٌّ...

فقالت :

ـ بل هداني ٱلله للإسلام ، فأنت يا أَبَتِ سيدُ قريش وكبيرُها ، كيف يسقُطُ عنك الدخول في ٱلإسلام ، وأنت تعبد حجرًا لا يسمعُ ولا يُبصر...

استمع إليها وهو يكاد يَتميَّزُ من الغيظ ، ثم خرج غاضبًا ، فقصد إلى النبيّ ﷺ فَصَدَّهُ ولم يقبل وساطته ، وهكذا عاد «أبو سفيان» إلى مكة فاشلاً وقد عابَتْهُ زوجتُه «هند بنت عتْبَة» قائلة :

ـ قُبِّحْت من سفير قوم ، فما جئت بخير.

مع (أم حبيبة)

.. إنها وقفة إجلالٍ وإكبار نقفها أمام أُم المؤْمنين «أُم حبيبة» نُحيي فيها صلابَة إيمانها ، وقوةَ إسلامها ، وعَظَمَةَ شخصيتها ، ونقدِّر فيها سموّها وارتفاعها عن قِيَم الجاهلية التى تعارف الناس عليها ، وتعاملوا فيما بينهم على أُسُسِها ، فإذا بأُم حبيبة تنفضُها دفعة واحدة وترمى بها فى وجوهِ أَصحابها ، فلا تعتمد إلا على الله ، ولا تثق إلا بالله ، ولا تلجأ إلا إليه ، ولا تقيم لنسبٍ وزنًا إلا نسب الإيمان والإسلام ، رضى ٱلله عنها وأرضاها .

وهكذا المؤْمن الحق ، لا يعرف صِلَةً إلا صِلةَ الإيمان والإسلام .

وحين عَلِمَ النبي ﷺ بما كان بين أم حَبِيبة ووالدها ازدادت قيمتُها فى نظره ، وسَمَتْ مكانتُها فى قَلْبِهِ ، فبالغ فى إكرامها وتقْديرها كِفاءَ ما قدَّرَتْ وعظَّمتْ حُرمَة الدين وحُرْمَةَ بيت النُبُوَّة .

* * *

(بعد رسول الله ﷺ)

وبعد أن لحق رسولُ ٱللهِ ﷺ بالرفيق الأَعلى أَقامَتْ «أُم حبيبة» فى بيتها وفيَّةً لِذِكْرى رسولِ ٱلله .

وعرف لها الناسُ جميعًا (سادة ومَسُودين) مكانتَها ومقدارَها فاحترموها وعظَّموها ، وفاءً منهم لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه .

فكان الخلَفاءُ يأْتونها زائرين ، ويَصِلُونها بالمال الذى يكفيها مؤُونة الحاجة وذُلَّ السُّؤال .

وكم من فتنَةٍ حدثت إلا أنها لم تشارك فيها لا بالقول ولا بالفعل ، ولم تنطقْ بكلمةٍ يُشْتَمُّ منها تحيُّزٌ لفريق دون فريق ، بل حرصت كل الحرص على أن تقول الكلمة الطيبة التى تدعو إلى وحدة صف المسلمين والتفافِهم حولَ الدين واعتصامِهم بالله ، واستمساكِهم بحبله ٱلمتين .

ورَوَتْ ما سمعت من حديث رسول ٱلله ﷺ فأسهمت فى تنمية التراث العلمى الإسلامى .

لقد كانت «رضى الله عنها» سيدةً جليلةً بكل ما فى الكلمة من معنى ، وَقُورةً هادئة . لا يستخفّها أَمْرٌ أو حَدَثٌ مهما بَلَغَ عنفُهُ أو فاعليّته .

* * *

(الوفاة)

لم تكن تخرج رضى الله عنها من بيتها إلا لصلاة ، ولم تكن تترك ٱلمدينة إلا لحجٍّ ، ولما كان العامُ الرابعُ وٱلأَربعون من ٱلهجرة أحسَّتْ «أُمُّ حبيبة» بالضعف يسرى إلى أوصالها ، والوَهَنِ يتمشى فى كيانها ، كيف لا ، وقد شارفت على الانتهاء من العقد السابع من عُمْرِها . وما هى إلا أيام حتى توفاها ٱلله سبحانه وتعالى فدفنت بالبقيع . رضى الله عنها وأنزلها منزلاً مباركًا طيبًا ، وألحقنا بها فى زمرة عباده الصالحين .

* * *

أمّ سلمَة

أمُّ المؤمنين
هند بنت أبي أمية
رَضيَ الله عَنهَا

١ ـ قالت «أم سلمة» رضى الله عنها :

«والله ما أعلم أهل بيْتٍ فى ٱلإسلام أصابهم ما أصاب آلَ (أبى سلمة)..»

٢ ـ (... وجاء أمرُ الله إلى نبيّه ورسولِهِ بأن يضُم «أُمّ سلمة» إلى أُمهاتِ المؤْمنين ويرفعَ مكانتَها ، فأَرسل من يخطُبها ، وكان رسولُهُ إليها «حاطبَ بن أبى بلتعة» فقالت له :

ـ مرحبًا برسول الله ﷺ .. ولكن أَبْلِغْهُ عنى أَنى امرأةٌ مُسِنّة ، وأمٌّ أيتام .. وأنى فوق ذلك شديدةُ الغيْرة .

فأَرسل إليها الرسول ﷺ يقول :

أما قوْلك : إنكِ امرأةٌ مُسِنَّة فأَنا أَسَنُّ مِنْكِ ولا يُعابُ على المرء أن يُقالَ تزوَّجَ أَسَنَّ مِنْهُ .

وأَما قولكِ : إنى أُمٌّ أَيتام ، فإن كَلَّهُمْ على الله ورسوله .

وأَما قولُكِ : إنى شديدةُ الغيْرة ، فإنى أَدعو الله أَن يُذهبَ عنكِ ذلك).

* * *

(توطئة)

قال تعالى : ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضى نَحْبَهُ ومِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وما بَدَّلُوا تَبْديلاً﴾ .

لقد كان «عبدُالله بنُ عبدالأسد» المخزومى «أبو سلمة» من

الصنف الأول الذين صدقوا الله عهدهم ووعدهم ، فقضى نَحْبَهُ في سبيله تعالى مكافحًا صابرًا مُحْتَسِبًا .

وكانت زوجتُهُ «أُمُّ سلمة» من الصنف الثانى المنتظِر قضاءَ الله وقدَره ، إذ تحمَّلَ الزَّوْجان من صنوف العذاب أقساها ، ومِنَ الشِّدَّة أَعْنفَها . هجرةً وتَشرُّدًا وقتالا . فما لانت عزيمتُهما وما خارت قواهُما . وما استسلما أَبدًا لطُغيانٍ أو ظُلْم .

ولقد مرّا (رضى الله عنهما) بتجربةٍ قاسيةٍ مريرةٍ لو أُنزلت على شُم الجبال لهدَّتْها ، وعلى الصّخورِ الصَّلْدةِ لفتَّتَتْها . ولكنّ نفسيْهما المُؤْمنتينِ بالله المستمسكتيْنِ بحبله كانتا أصلبَ من الفِتْنَةِ وأَقْوى من النّوازل . إذ كان حُبُّ الله وحُبُّ رسوله آثرَ عندهما من كُلِّ عَرَضٍ زائِلٍ أو قيمةٍ دُنْيَويَّة زائِفة .

كانت «العقيدة» عندهما أَغْلى وأَشْرَفَ من (المال والبنين).

وهكـذا المؤمن الحق ...

رضى الله عنهما وأَرْضاهما وأَنْزلهما مَنْزِلاً كريمًا مُباركا .

سهيل «زاد الركب» المخزومي

كان «سُهَيْلُ بن المغيرة بن مخزوم» سَيّدَ قومِهِ بلا منازع . وأَغْناهم بلا منافس ، عُرِف بالكَرَم والسّخاء والشجاعة . ولُقّب بـ «زاد الرّكْب» لأَنه كان إذا سافر لم يحمل مَنْ يكونُ برفقتِهِ زادًا بل كان يكفي الجميع

ذلك ، ويغضب إنْ هُم حَمَلوا مَعَهُم شيئًا من الطعام والنفقة .

من صُلْب هذا السخىّ الكريم وُلِدَتْ «هِند» أمُّ سلمة ، فَحَمَلت من صفات أَبيها ما جعلها فى صِبَاها وشيخوختها موضعَ احترام الناس جميعًا وتقديرهم .

فرغبها «عبدالله بن عبد الأَسد» المخزومى زوجَةً لَهُ وبنى بها ، وهنئ مَعَها ، فكانت الزوجة الصالحةَ الوفيَّةَ المطيعَة . تقوم بشئون زَوْجها خَيْر قيام ، تحترمه وتقدّرُهُ وتوَفِّرُ لَهُ الجوَّ المنزلىَّ الذى يستريحُ إِلَيْه ..

لقد كانت (رضى الله عنها) مُنْذُ أَيام زواجها (زوجةً) بكل ما فى كَلِمَةِ الزَّوْجةِ مِنْ حقيقة ، رَغْم صِغَرِ سِنّها وحداثةِ عُمْرها ، فقد كانت تتمتع بنضجٍ يحسُدُها عليه كبار السِّنّ مِمَّن عركتهم الأَيّام وجرَّبتهم الأَعوام .

* * *

البيت المسلم

آمن «أبو سَلَمَة» بمحمدٍ ﷺ وبدعْوَتِهِ بعد أنْ سمع عنها وفَقِهَها وأَدرك ما تنطوى عليه من مُثُلٍ وقيَمٍ ، وآمنت معه زوجُهُ «أُمُّ سلمة» ، فكانا من الرّعيل الأَوَّل الذين قامت على جهادِهم وتضحياتهم دَعْوة الإِسلام ، وأضاءت بنورها العالم قاطبةً .

كان «أبو سلمة» شابًا ممتلئًا حيويّةً وأَنَفَةً ، ولم يكُنْ من الطَّرْز الذى

يُخْفِي دينَهُ تَقِيَّةً ، فكان يُجاهر بدينِهِ وعقيدته مُتحدِّيًا ، فلقي من جرّاءِ ذلك نَصَبًا وعَذابًا وحِرْمانًا .

فلما أَذِن رسول الله ﷺ لأَصحابه بالهجرة إلى الحَبَشَةِ فرارًا بدينهم وحِرْصًا على عقيدتهم ، شَدَّ «أَبو سلمة» و «أُمُّ سلمة» الرِّحال .

وأَقاما في أَرض (النّجاشيّ) ما شاء لهما الله تعالى أَنْ يُقيما ، حتّى كان إسلام «حمزة بن عبدالمطلب» و «عُمَر بن الخطاب» رضى الله عنهما . فعادا إلى (مكّة) مع مَنْ عاد .

عادا وقد استَبَدَّ بهما الشَّوْق إلى الوطن . وأَرّقهما طولُ البُعادِ عن الأَهلِ والأَحْباب . وبَرَّح بهما الحنين إلى طلعةِ النبي ﷺ وعذوبةِ حديثه . ورِقَّةِ كلامه . وحَدْبِهِ الشديد وعَطْفِهِ الكريم .

* * *

في حلف أبي طالب

وكان من عادة العرب أَن يدخل الضعيف منهم في حِلْفِ القوى . فيطلب حمايَتَهُ ممن يريدون القضاء عَلَيْه أَو التخلُّصَ منه .

وحين رجع بعض المهاجرين من الحبشة إلى مكة رجع معهم «أَبو سلمة» ولكى يأمَنَ على نفسه وأَهله بَطْشَ قريشٍ لجأَ إلى أَبي طالب عم النبي ﷺ فدخل في حماهُ واستجارَ به ، فأَجارهُ أَبو طالب ومنع قريشًا من إيذائه .

فمشى رجالٌ من بنى مخزومٍ (أَهل أَبى سلمة) إلى أَبى طالبٍ وقالوا له :

ـ يا أَبا طالبَ ، لقد منعتَ منا ابنَ أخيك محمدًا . فما لَكَ ولصاحبنا تمنعُهُ مِنّا ؟

فقال :

ـ إنه استجار بى ، وهو ابنُ أُختى ، وأَنا إِن لم أَمنع ابن أُختى لم أَمنع ابن أَخى .

عندئذٍ قام أَبو لهبٍ وقال :

ـ يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتُم على هذا الشيخ ، ما تزالون تَوَثَّبون عليه فى جواره من بين فى قومه ، ولله لتنتهُنّ عَنْه أو لنقومَنَّ معه فى كُلّ ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

حينئذٍ أدرك الحاضرون أَنّ موقفهم أصبح ضعيفًا لتخاذل أبى لهبٍ عن نُصْرتهم ، وصمود أبى طالبٍ فى وجههم ، فارتدوا على أعقابهم خاسرين .

لم يكُنْ موقفُ أبى لهبٍ هذا مكْرُمَةً تُسَجَّلُ لَهُ لأَنه لم يُتْبعه بأَىِّ عَمَلٍ أو فِعْلٍ يصدِّقُه ، بل كان تصرفًا سياسيًا يريد من خلاله الإبقاءَ على زعامتِهِ وسطوتِهِ .

المهاجـرون الأوائل

أقام المسلمون بمكة مستضعفين حتّى أذِن ٱلله تعالى لدينِه أن

يؤمنَ به نَفَرٌ من أعراب المدينة (يثرب) ، وقد أصبحت بعد مرور زمنٍ يسير لا يزيد عن السَّنَةِ إلا قليلاً موئلاً لدعوة الله ، ومنطلَقًا للتبشير بكلمته .

فما أن آمن أُولئك النفرُ القلائلُ حتى تكاثروا أضعافًا خلالَ عامٍ واحد ، وابتعث النبي ﷺ معهم الداعيةَ الأَول (مُصْعَب بن عمير) رضى الله عنهُ يعلِّمهم أُمور دينهم ويبشر بالدين الجديد فى بيوت يثرب ودورها ونواديها .

ثم أذن رسول الله ﷺ لأَصحابه بالهجرة إلى المدينة بعد أَن بايعه زعماؤُها وسادتُها على نُصْرة دين الله .

ولنترك الحديثَ لأُمِّ سلمة رضى الله عنها تحدّثنا بلسانها عن مراحل هجرتها مع زوجها (أبى سلمة) إلى المدينة .

قالت أُم سلمة :

لما أَزمع (أبو سلمة) الخروجَ إلى المدينة رحَّل لى بعيره ثم حملنى عليه ، وحمل معى ابنى سلمة فى حِجرى ، ثم خرج بى يقود بى بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا :

ـ هذه نفسك غَلَبْتنا عليها أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

قالت :

ـ فنزعوا خِطامَ البعير من يده ، فأخذونى منه ، وغضب عند ذلك

بنو عبد الأسد ـ رَهْطُ أبي سلمة ـ ، فقالوا : لا والله ، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا بُنَيّ (سلمة) بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق بنو عبد الأسد . وحَبسَنى بنو المغيرة عِندهم ، وانطلق زوجى (أبو سلمة) إلى المدينة ، ففرّق بينى وبين زوجى وبين ابنى .

فكُنْتُ أخرج كُلّ غداةٍ فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أُمسى . سنةً أو قريبًا منها حتى مَرّ بى رجُلٌ من بنى عمّى أَحَدُ بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تُخرجون هذه المسكينة ، فرَّقْتُم بينها وبين زوجها وبين ولدها !

فقالوا لى : الحقي بزوجك إن شِئْتِ . وردَّ بنو عبد الأَسد إلىّ عند ذلك ابنى .

فارتحلتُ ببعيرى . ثم أخذتُ ابنى فوضعتُهُ فى حِجرى ، ثم خرجتُ أُريد زوجى بالمدينة وما معى أَحدٌ من خلقِ الله .

فقُلْتُ : أتبلَّغُ بمن لقيتُ حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كُنْتُ بالتنعيم (١) لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بنى عبد الدار فقال لى : إلى أَين يا بنت أبى أُميَّة ؟

فقلتُ : أُريد زوجى بالمدينة .

قال : أَوَ ما معك أحد ؟

(١) موضع بين مكة وسرف ، على فرسخين من مكة .

فقلتُ : لا والله ، إلا الله وبُنَىَّ هذا .

قال : والله ما لَكِ من مَتْرك ، فأَخذ بخِطَام البعير فانطلق معى يَهْوى بى ، فوالله ما صحبتُ رجُلاً من العرب قطُّ أرى أنه كان أكرمَ منه ، كان إذا بلغ المنزلَ أناخَ بى ، ثم استأْخرعنى حتى إذا نزلت استأْخر ببعيرى فحطّ عنه ، ثم قيّده فى الشجرة ثم تنحّى عنى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرّواح ، قام إلى بعيرى فَقَدَّمه فَرَحَّلَهُ ثم استأْخر عنى وقال : اركبى ، فإذا ركبتُ واستويتُ على بعيرى أتى فأَخذ بخطامه ، فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى (عمرو بن عوف) بقُباء ، قال : زوجُكِ فى هذه القرية ـ وكان أَبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعًا إلى مكة .

وإلى هنا تنتهى رواية (أُم سلمة) رضى الله عنها وما من شَكّ أَنها لقيت من الأَهوال والشدائد والمتاعب الشىءَ الذى لا يقدّر ولا يوصف ، احتملتْهُ بعزيمة المؤْمنة الصابرة ، الواثقةِ بقضاء الله وقدره ، ولو تصوّر أَحدُنا بُعْدَ الشُّقّة وطولَ المسافة ووَحشةَ الطريق ، وحرَّ النهار ، وبَرْدَ الليل ، ومشقة السَّفر لأَدرك ما لقيتْهُ (أُم سلمة) رضى الله عنها فى سبيل محافظتها على عقيدتها ودينها ، وحِرْصِها على اللَّحاق برسول الله ﷺ قائدِ الدعوةِ ورائدِ الجماعة ، والتواجدِ مع زوجها ووالدِ طفلها الذى أُكره على فراقها والابتعادِ عنها ما يَزيدُ على السَّنَة .

فى المدينة

اجتمع شملُ ٱلأُسْرةِ من جديد ، إذ استقبل «أَبو سلمة» زوجتَهُ وابنَهُ خيرَ استقبال ، وٱنزاحت من الجوِّ سُحُبٌ سوداءُ أَقامتْ زمنًا ، وظَلَّلَتْهُ غمائمُ بيضاء ، ورفرف ٱلهناءُ بجناحيْهِ فى ٱلآفاق.

إلى الجهـاد

وانخرط «أَبو سلمة» رضى الله عنه فى صفوف ٱلمجاهدين فى سبيل ٱلله ، يخوض غِمارَ ٱلمعارك ويُبلى فيها أَحْسَنَ البلاء ، فكان له فى «بدْرٍ» صَوْلاتٌ وجَوْلات ، وعرفَتْهُ أَرضُ «أُحُدٍ» إذ بلل ثراها دَمُهُ الطاهر ، فقد جُرِح يومها جُرْحًا بليغًا كاد يودى بحياته إلا أَن ٱلله تعالى شفاه من ذلك مُدّخرًا إياه ليومٍ آخر.

فقد أَرسله رسول ٱلله ﷺ أَميرًا على سريَّةٍ للقضاء على (بنى أَسدٍ) ، فعاد من تلك الحملة موفقًا ظافرًا منتصرًا معه كثير من الغنائم والأَسلاب فضلاً عن أَنّه أَعاد للمسلمين هيبتهم التى افتقدوها يومَ «أُحُد».

لقد أَجهد أَبو سلمة نَفْسَهُ يومَ قاد هذه الغزوةَ ٱلمظفّرة ، وناله من جراء إرهاقهِ لنفسهِ إجهادٌ كان من أَثره أَنْ تجدد ٱلجرح القديم ونزف الدَّمُ ثم تقيَّح واستفحل شرُّه حتى قضى فى النهايةِ على ٱلمجاهدِ العظيم ، والنبىُّ ﷺ إلى جانب فراشه يواسيه حتى أَسلم الروح.

وتَلَقَّت «أُم سلمة» رضى ٱلله عنها تلك ٱلمصيبة بقلْب مملوءٍ إيمانًا ،

ونفسٍ مشحونةٍ صَبْرًا ، مستسلمةً لأَمْرِ ٱللهِ تعالى . شاكرةً فضله على مَنْحِهِ الشهادة لزوجها (البطل) ، فكانت (المسلمة الخالدة) التى أَعطت أَعظم ٱلمثل فى الصبر على الشدائد ، وٱلأَخذ بيد ٱلزوجِ إلى مراقى الفلاح والنجاح .

الزوجة الوفية

بعد أَن مرت أَربعةُ شعورٍ على وفاةِ «أَبى سلمة» رضى ٱلله عنه ، جاء «أبو بكرٍ الصديق» رضى ٱلله عنه إلى «أُمّ سَلمة» خاطبًا ، ولقد كانت عادةُ العرب فى إكرام رجالهم العظام أن يحفظوهم فى زوجاتهم إن هُمْ قَضَوْا فى ساحةِ الشرف وماتوا فى مَيْدان ٱلجهاد بالزواج منهنّ ، ولكنَّ أُم سلمة ردَّتْهُ .

وجاءها عمر بن الخطاب خاطبًا فردّته أيضًا ...

وتذكّرت فى خلوتها يومًا بنفسها حديثًا جرى بينها وبين زوجها إذ قالت له فى أَحدِ ٱلأَيام :

بلغنى أنه ليس امرأَةٌ يموت زوجُها وهو من أهل ٱلجنة ، ثم لم تَزَوَّجْ بعده إلا جمع ٱلله بينهما فى ٱلجنة ، وكذلك إذا ماتت ٱلمرأَةُ وبقي ٱلرَّجُلُ بعدها فَتعالَ أُعاهِدْكَ أَلا تتزوَّجَ بعدى ولا أتزوَّجَ بعدك ، قال ـ أَبو سلمة ـ فإذا مِتُّ فتزوَّجى ، ثم قال : اللهمَّ ارزق (أُم سلمة) بعدى رجُلاً خيرًا مِنى ، لا يُحْزِنُها ولا يُؤْذيها .

خير من أبي سلمة

وبينما هي في سَبْحة فكرها هذه ، استأْذن عليها رسولُ الله ﷺ فأَخذ يواسيها ويخفف عنها مُصابَها وقال لها :

ــ سلي الله أن يؤْجرك في مصيبتك ويُخْلِفَكِ خيرًا ..

فبكت الأَرمل الحزينةُ التي قاسمت زوجَها السرّاء والضرّاء ، فهاجرت معه إلى الحبشة هربًا من إيذاء قريش واستمساكًا بدين الله ، ولقد أحبّته وأحبَّها ، ووفت بعهده بعد مَوْتِهِ ، ولم تَجِدْ في الرجال جميعًا من يَعْدِلُه ، ورفضتِ الأَيدي التي تقدَّمت لخِطبتها ومن بينها يَدَا صاحبي رسول الله ﷺ : أبي بكرٍ وعمر .

وقالت لرسول الله ﷺ :

ــ ومن يكون خيرًا من أبي سَلَمة يا رسولَ الله .

وفكّر النبي في أمر أُم سلمة كثيرًا ، وتضاعف تفكيره في أمرها عندما ردّت صاحبيه ، فأكبر في نفسه تلك السيدة .

لقد أَكْبَرَ المسلمةَ الكريمة ، والمؤْمنة الصادقة .

لقد فكّر في أمر هذه السيّدةِ الهالعةِ فرأى أنه ليس من الحكمة أن تُتْرك وحيدةً هكذا .

ثم جاء أَمْر الله تعالى لنبيه أن يضمَّ «أُم سلمة» إلى أُمهات المؤْمنين تكريما لها ، ورفعًا لمكانتها ، وتعظيما لشأْنها ، ومواساةً لها .

رسول الله الخاطب

ثم أرسل عليه السلام حاطب بن أبي بلتعَة خاطبًا له : فقالت «أُم سلمة» :

ـ مرحبًا برسولِ ٱلله ﷺ ... ولكن أَبْلغْه عني أني ٱمرأَةٌ مُسِنَّة ، وأُمٌّ أَيتام ، وأني فوقِ ذلك شديدةُ الغيرة .

فأرسل إليها رسولُ ٱلله ﷺ يقول :

ـ أما قولُك إنك امرأة مُسِنَّة فأَنا أسنُّ منك ، ولا يُعاب على المرء أن يُقال : تزوَّجَ أَسَنَّ مِنْهُ .

وأما قولك : إني أُمّ أيتام ، فإن كَلَّهُمْ على الله ورسوله .

وأما قولك : إني شديدة الغيرة ، فإني أدعو الله أن يُذهِبَ عنك ذلك .

وكان وليَّها في ذلك اليوم ولدُها «عُمر بن أبي سلمة». وأصْدَقها رسول الله ﷺ متاعًا قيمتُهُ عشرُ دراهم (فراشٌ حَشْوُهُ ليفٌ وقِدْرٌ وصحفةٌ ومجشَّةٌ).

كانت «أُم سلمة» رضي ٱلله عنها على جانبٍ من الجمال ، فدَبَّتِ الغيرة إلى نفسِ «عائشة» رضي ٱلله عنها عِنْدما علمت بالزّواج ، وهكذا شأْنُ النّساء ...

وكان من إكرام النبي ﷺ لأُم سلمة أنه كان إذا صلى العصر دخل على أزواجه واحدة واحدة مبتدئًا بأُم سلمة لأَنها أَكبَرُهُنّ ثم يختم بعائشة .

الزوجة الصالحة

كانت «أُم سلمة» رضى ٱلله عنها من النساء العاقلات الناضجات اللواتى يُدْركن ٱلأُمور إدراكًا صحيحًا ويقيمنها تقييمًا، ويعطين فيها حُكْمًا صائبًا.

فعاشت فى بَيْتِ النُّبوَّةِ مُقَدَّرةً وُجودَها حريصةً على مكانتها مراعيَةً جانب ٱلمودَّة والأُلْفَةِ مع أُمهات ٱلمؤْمنين.

لهذا كُلِّه كانت منزلتُها عند رسول اللهﷺ عظيمةً رفيعةً. وَحَدَثَ فى يَوْمِ «الحُديبيةِ» أَن أَمَرَ النبىﷺ أَصحابه بعد أَن فرغ من توقيع عقد الصُّلْح مع وَفْدِ قريش، أن ينحروا ثم يحلقوا فلم يقُم منهم أَحَد، وردَّد ذلك ثلاث مراتٍ دون أَن يجيبه أَحدٌ إلى طلبِهِ فَدَخَلَ على «أُم سلمة» فذكر لها ما لقي من صدود الناس وإعراضهم، وهو حزين متألِّم.

فقالت: يا رسول ٱلله، أَتحبُّ ذلك، ٱخرُج فلا تكلِّمْ أَحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدنَتَك، وتدعو حالقك فيحلِقَك.

فاستصوب النبىُّﷺ رأى «أُم سلمة» التى أَشارت به، والذى سيكون ـ ولا شك ـ حافزًا فِعْليا على تحرّك الناس.

فقام وخرج ولم يكلم أَحدًا منهم كلمةً، فنحر بُدنته، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناسُ ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا.

وهكذا كانت رضى ٱلله عنها فى كثيرٍ من ٱلمواقف ، لا تصدر إلا عن نضجٍ وعُمْق تفكير .

ولقد حفظت فى ذاكرتها كثيرًا مما حَدَّث رسول الله ﷺ فروتْهَ عنه بأمانة الناقل ووعى السامع .

* * *

بعد رسول الله ﷺ

وبعد أَن لحق رسولُ ٱلله ﷺ بالرفيق ٱلأَعلى أَقامت أُم ٱلمؤْمنين «أُمُّ سَلمة» ترقبُ مجريات الأُمور وتطور ٱلأَحداث وٱلوقائع فتُدلى برأْيها فى كُلِّ شأْنٍ حفاظًا منها على استقامة الناس وعدم انحرافهم وخاصَّةً أَصحاب السلطان من ٱلخلفاءِ والولاة .

ولقد روى ٱلمؤرخون أَنها رضى ٱلله عنها دخلت على عثمان بن عفان رضى ٱلله عنه فى أَثناء خلافته ، وحدَّثته ناصحةً فقالت :

ـ يا بنى ، مالى أَرى رعيَّتَكَ عنك نافرين ، وعن جناحك ناقرين ؟ ، لا تعْفُ طريقًا كان رسولُ ٱلله ﷺ يُحِبُّها ، ولا تقتدح بزنْدٍ كان عليه السلام أَكْباهُ ـ

وتوخَّ حيث توخّى صاحباك (أبو بكر وعمر) فإنهما ثكما ٱلأَمر ثكمًا ولم يظلما .

هذا حقُّ أمومتى قضيتُهُ إليك ، وإن عليك حقَّ الطاعة .

فقال عثمان :

أَما بَعْدُ ، فقد قُلْتِ فَوَعيْت ، وأَوصيْتِ فقبِلْتُ .

وقُتِلَ (عثمان) رضى ٱلله عنه ، فحزنت لفقْدِهِ واستشهادِهِ على الصورة المؤْلمة التى حدثت ، فدخل عليها رجُلٌ من بنى تميمٍ يسأَلها عن (عثمان) فقالت :

ـ شكا الناسُ مِنْهُ ظُلامةً فاستتابوه فتاب وأَناب ، حتى إِذا صيّروه كالثَّوْب الأَبيض من ٱلدّنَسِ ، عمدوا إِليه فقتلوه .

الغيورة على أمهات المؤمنين

وحين عزمت «عائشة» رضى الله عنها الخروج إِلى وقعة (الجمل) ، كتبت إِليها «أُم سلمة» قائلة :

من «أُمّ سلمة» زوج النبى ﷺ إِلى عائشة أُم المؤْمنين ، فإِنى أحمد ٱلله إِليك ٱلذى لا إِله إِلا هو .

أَما بعد ، فقد هتكت سدّة بين رسول ٱلله ﷺ ، وأُمته حجابٌ مضروب على حرمتهِ ، قد جمع القرآن ذيْلك فلا تندحيه ، وسكن ٱلله من عقيراك فلا تصحريها صرح الله من وراء هذه ٱلأُمة ، لو علم رسولُ ٱلله ﷺ أَن النساء يحتملن الجهاد عَهِدَ إِليك ، أَما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة فى الدين ، فإِن عمود الدين لا يثبّت بالنساء إِن مال ، ولا يرأَب بهنّ إِن انصدع ، جهاد النساء غَضٌّ ٱلأَطراف ، وضَمٌّ

الذيول ، وقصرَ المودّة ، ماكُنْت قائلةً لرسول ٱللهﷺ لو عارضك ببعض هذه الفلوات ، ناصة قعودًا من منهلٍ إلى منهل ، وغدًا تَرِدينَ على رسول ٱللهﷺ ، وأُقسم لو قيل لى : يا «أُم سلمة» ادخُلى الجنة لأَستَحْيَيْتُ أَن أَلقى رسول اللهﷺ هاتكة حجابًا ضربَهُ علىَّ ، فاجعليه سِتْرك ، وقاعة البيْتِ حِصنكِ ، فإنك أَنصحُ ما تكونين لهذه ٱلأُمة ما قعدْتِ عن نُصْرتِهم ، ولو أَنى حَدَّثتُكِ بحديثٍ سمعْتُهُ من رسول اللهﷺ لنَهَشْتِ نَهْشَ الرّقْشاء المطرقة ، والسلام .

المجاهرة بالحق

. وحين تولّى «معاوية بن أَبي سفيان الخلافة» أَرسل «بُسْر بن أبي أَرطاة» إلى المدينة ليأْخُذ البَيْعَةَ له من الناس ، فقال بُسْر : لا أُبايع رجُلاً من بنى سلمة حتى يأْتى جابر .

فأَتَتْ «أُمّ سلمة» وكانت قد بلغت من الكِبَرِ عِتِيًا فقالت : بايعْ ، لقد أمرتُ (عبدالله بن زمعة) ابن اخى ، أَن يبايعَ على دَمِهِ ومالِهِ ، أَنا أَعْلم أنها لبيعة ضلالة .

كما أَرسلت إلى «معاوية» حين أَمر بِلَعْنِ الإمام على كَرَّم الله وجهه على المنابر قائلة :

ـ إنكم تلعنُون الله ورسوله على منابركم ، ذلك أَنكم تلعنون (على ابن أَبى طالب) ومَنْ أَحَبَّهُ ، وأنا أَشْهَدُ أَن الله أَحبَّهُ ورسوله .

(الـوفـاة)

وظلّت رضى الله عنها أُمّاً للمؤْمنين ، ترفَعُ عنهم بلسانها غائلة الظُّلم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً وتنافح عنهم جَوْر السُّلْطان ما أمكنها ، وتصْدَعُ بكلمة الحقّ لا تخشى فيها لَوْمَةَ لائم .

فلما كان شهر ذى القعدة من العام التاسع والخمسين للهجرة دبَّ الفناءُ إلى أَوصالها ، وأَسلمت الروح راضيةً مرضيَّة ، فصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه ودُفِنَتْ بالبقيع وقد تجاوزت الرابعة والثمانين من عُمْرها .

رضى الله عن أُم المؤْمنين «هند بنت أبى أُمية» أُم سلمة ، الزوجةِ الوفية ، والمجاهدةِ الصابرة ، والعالمةِ الجليلة ، والمحدثةِ الأَمينة ، حاملةِ راية الحق .

* * *

زَيْنب الكُــبرى

بنت رسُــول الله ﷺ »

قال الله تعالى :

﴿ ماكان محمدٌ أبا أَحَدٍ من رجالِكُم ولَكِنْ رسولَ ٱللّه وخاتَمَ النبيين
وكان بالمُؤْمنين رحيما . تحيَّتُهُم يَوْم يلْقَوْنه سلامٌ وأَعَدَّ لهم أَجْراً كريما ،
يا أَيُّها النّبي إنا أَرْسَلْناك شاهداً ومُبَشِّراً ونذيراً ، وداعياً إلى ٱللّه بإِذْنِهِ
وسراجاً منيراً ، وبَشِّر المؤمنين بأَنّ لَهُم مِن الله فَضْلاً كبيراً ، ولا تُطِعِ
الكافرين والمنافقين ودَعْ أَذاهُم وتوَكّل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾

ـ صَدَق الله العظيم ـ

سورة الأحزاب : الآيات (٤٠ ـ ٤٥)

وقال «أبو العاص بن الربيع» زَوْج «زينبَ» رضى الله عنهما :

ذَكَرْتُ زيْنَبَ لَمّا ورَّكَتْ إرَما
فقُلْت سُقيا لشخْص يَسْكُن الحرَمَا
بِنْتُ «الأمين» جزاها ٱلله صالِحَةً
وكُلّ بَعْلٍ سَيُثْنى بالذى عَلِما

* * *

توطئة

حدَّثوا أن الأخْنَسَ بن شريق أتى «أَبا الحكم بن هشام بن المغيرة» ـ (أبو جَهْلٍ) ـ فسَأَلَهُ :

ـ يا أَبا ٱلْحكم ، ما رأْيُكَ فيما سَمِعْتَ من مُحَمَّد ؟ فأجاب :

ـ ماذا سَمِعْتُ ؟ تنازعْنا نَحْنُ وبنو عَبد مناف الشَّرف : أطْعموا فَأَطعمنا ، وحملوا فَحَمَلْنا (أى الدِّيات) ، وأعطوا فأَعطيْنا ، حتى إذا تحاذَيْنا على الرُّكَب وكُنّا كَفَرَسَىْ رِهان قالوا :

ـ مِنا نبى يأتيه ٱلْوَحْى من السَّماء ... فمتى نُدْرِكُ مثل هذه ؟ وٱلله لا نُؤْمن بِهِ أَبداً ولا نُصَدِّقُه ! ! !

* * *

لقد كان تَصَوُّرُ الجاهليَّةِ ٱلْقُرشيَّةِ للنُّبوَّةِ تَصورًا مُركّباً مُعقّداً يَنْبُع من تقاليد بيئتها ، وسُخفِ نَزْعَتها ، المختلط بعنجهية فارغَة وكِبْرٍ أَجْوَف ، ولم يُدْركوا أن رسالة محمد (عليه السلام) ودعوتَه إنماهى رحْمةٌ مُهْداةٌ إلى البشرية قاطبةً ، والعالم أَجْمع وثورةٌتحريريَّةٌ لِعقْلِ الإنسان ونَفْسِهِ .

نسبها ونشأتها

ولِدَتْ «زَيْنَبُ» رضى الله عنها قَبْل بعثِة والدها ﷺ بعَشر سنين ، وكانت باكورة زواجه من أم المؤْمنين «خديجة بنت خُوَيْلدٍ» رضى الله عَنها ، وهى أَكثر أخواتها شبهاً بأبيها (عليْه السلام)

وهى تنتَسِبُ إلى أَشْرَفِ أبوَيْن فى الوجود ، فوالدها هو محمد ﷺ المبعوث رَحْمَةً للعالمين ، إمام الأَنبياء ، وقُدْوة المُرْسلين ، وقائِد الغُرِّ المحجَّلين ، عليه وعلى آله وصحبه الأَبْرار الطاهرين أزكى الصلاة وأَطْيَبُ التسليم . وأُمّها هى سيِّدةُ نِساءِ العالمين ، ذُرْوَة قريش نَسَباً وشرفًا وفَضْلاً وعِلْما ، زَوْجَةُ أَحبّ خلق الله إلى الله ، محمد «عليه السلام» .

نشأتها

خَرَجَتْ إلى ٱلدُّنيا فى أَكرَم مَنْبتٍ ، أَنْبَتَتْها سُلالَةٌ قرشيَّةٌ عريقة أصيلة ، ما عرف العرب أَعَزّ منها ولا أَتْقي ، واستقْبلها بَيْتٌ كريم البنيان طاهر الأَردان ، استقبالاً لم تظفر بمثلهِ تِرْبٌ لها ، لأَنها كانت ثمرة زواجٍ سعيدٍ قام على ٱلُحبّ المتبادل ، والمودَّة

الخالصة ، والاحترام العظيم ، ولقد رأى فيها الأب الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) صورةً لطيفةً من زوجته ٱلحبيبة ، التى أَنْسَتْهُ بحنانها الغامر وحدبها الكبير ، كل ما عاناهُ فى طفولتِهِ من قسْوةِ ٱليُتْمِ .

وكانت الأُمّ العظيمةُ «خديجة» ترى فيها فِلْذةً حيَّة من زَوْجها ٱلحبيب العزيز ، الذى بَهَرها مُنْذُ عرفَتْهُ بجلالِ طَاعتِهِ ، وأَسرها بمهابتِه ونُبْل شَخْصيته ، وفَتَنَها بجميل خِصالِهِ ، فَتَفتَّح لهُ قَلْبُها المُغْلق بسبب زواجٍ سابقٍ غَيْر موفّق ، فأَقْبَلَتْ على ٱلحياةِ من جديد .

* * *

ولقد كانت «زَيْنَبُ» ـ رضى الله عنها ـ بإِطْلالتها الأُولى على بيت ٱلنبوّةِ ريحانةً تفيض عَلَيْهِ طيباً عابقاً ، وبَهْجَة غامرة .

وعُهِد بها على عادَةِ أشْرافِ ٱلعَرَبِ إلى ٱلمُرْضعات . فَلَما أَخَذَتْ حَظّها ونَصيبَها ، تَلَقَّفَها ٱلبيْتُ الكريم ثانِيَةً بِشَوْقٍ بالغ ، وعطف غامر .

ولّما شَبّت (رضى ٱلله عنها) ؛ بادَرَتْ أُمّها بتدريبها على المشاركةِ فى عِبْءِ المنزل ، وأَخذَتْها على التَّمْرين مأْخَذَ ٱلجِدّ ، وحاوَلَتْ أن تُبْعدَها قَدْر الإمكان عن عبثِ الطفولةِ ولَهْوها ؛ فكانَتْ ـ وهى لا تزال فتاةً صغيرةً ـ لشقيقتها ٱلصُّغْرى «فاطمة» ـ

رضى الله عنهما ـ نِعْم المربِّية والرّاعية الصَالحة ، تَرْعى شئونها ، وتُلاعِبُها وتقومُ على خِدْمَتِها .

وحين اكْتَمَلَتْ أُنُوثَتُها ، تَقَدَّم لخطبتها ابن خالتها «أبو العاص ابن الربيع» الذى كان كثيرَ التعلُّق بخالَتِهِ «خديجة» التى كانَتْ تُنْزِلُهُ مَنْزِلَ الابن ، وتغْمره بِعَطْفِها وحنانِها .

وكان «أبُو العاص» يرى «زيْنَب» كُلّما جاء إلى بَيْتِ خالتِهِ فَيُؤْخَذُ بجلال مَرآها ، وعُذُوبَةِ حديثِها ، وذكاء ملامِحِها ، ولُطْفِ طباعها ، وتفتُّح أُنُوثتها ...

كانَتْ «زَيْنَبُ» ـ رضى الله عنها ـ تَرتاح إلى مَحْضَرِه ، ويطيبُ لها أنْ تُصْغى إلى أَخْباره وما فيها من طرائِفَ وغرائب .

وهكذا تَفتَّح ٱلْقَلْبانِ ، وأحسا لَمْسة الحُبّ الرقيقة السّاحرة تُحَرِّك وجْدانهما وعاطفتهما .

* * *

تَقَدَّم «أبو العاص» لخطْبة «زَيْنب» فأَحْسَنَ رسول الله ﷺ لقاءه ، وأصغى إليه بكل جوارحه ، ولكنه استأذنه فى سؤال صاحبة الشأن ، ثمّ أتى رسول الله ﷺ إلى ابْنَتِه . وقال لها :

ـ بُنَيَّتى «زينب» إنّ ابن خالتك «أبا العاص بن ٱلربيع» ذَكَرَ اسْمَك ..

فسكتتْ «زينَبُ» حياءً ولم تُحِرْ جوابًا ، ولكن خفَقات القلب الطّاهر ، وإغضاء النّظر حياءً كانا خَيْر جواب .

فعاد (عليه السَّلام) إلى «أبي العاص» وصافَحَهُ مُهَنِّئًا وداعيًا مباركًا .

* * *

فى بيت الزوجية

وفى بَيْتِ الزوجية أَظَلّت «زيْنَبَ» وزوجها «أبا العاص» سعادةٌ غامرةٌ ، وحُبٌّ مُتبادَل ، فَنَهَلا من رحيق الوُدِّ أَصْفي شرابٍ وأَنْقَاهُ .

وكان «أبو العاص» بحُكم تجارَتِهِ ومكانَتِهِ فى قومِهِ كثير ٱلسَّفر ؛ يَغْدو إلى الشام فيغيب أيّامًا وليالى ، فتُعانى «زيْنب» من أَلَم الفراق ، ويُعانى هُو من أَلَم البُعاد ، ولقد هاجَ بِهِ الشَّوْق مَرَّةً فى إحدى رِحْلاتِهِ فأنْشدَ يقول :

ذكَرْتُ «زيْنَبَ» لما ورّكتْ إرَما
فقُلْتُ : سُقْيا لِشَخْصٍ يَسْكُنُ الحَرَما
بنْتُ الأَمين جزاها الله صالحة
وكُـلّ بَـعْلٍ سيثْنِي بالذى عَلِما

* * *

وضَعَتْ «زينب» لأبِي العاص ولَدْين : «عليًّا» و«أُمامة» فاكْتَمَلَتْ بهما فَرحة البيت ، وٱمْتلأت جوانبُه سعادَة وهناءَة .

ولكن ...

وفى ذات يَوْمٍ ، وبينما كان «أبو العاص» فى إحدى رحْلاتِهِ حَدَثَ ٱلأَمر الْعظيم ونُبِّىء رسُول ٱلله ﷺ بالرسالة .

وتابَعَتْ «زينب» أباها ، شأْن أُمِّها وأَخواتها وأَهْلها ، ولمّا عاد الزَّوْجُ من رِحْلَتِهِ حَدَّثَتْهُ بما حصل أَثْناء غيابِهِ .

* * *

مفترق الطريق

وقال «أبو العاص» لزوْجَتِهِ الحبيبة :

ـ والله ما أبوكِ عِنْدى بمتَّهم ، وليس أحبّ إليَّ مِن أَسْلُكَ مَعَك يا حبيبةُ فى شِعْبٍ واحد ، لكنّى أَكْرَهُ لَكِ أن يُقال إِن زَوجَك خَذَلَ قوْمَهُ وكفر بآلهة آبائه إِرضاء لاَمْرأَتِهِ ، فَهَلاّ قدَّرْتِ وعَذَرْتِ ! !

وهَمَّا بعناق ... ثُمَّ ما لبِثا أَن تراجعا فَجْأَة وكأَنّ حاجزًا قَدْ قامَ بَيْنَهما فحال دُونَ بُغْيتها ، وٱنْكفئآ ...

ولم يناما لَيْلَتَهُما ، ولا الليالى التى بَعدها ، وسادَ جَوَّ المنْزِل قَلَقٌ وهمٌ وحَذَرٌ ، وٱنْقَلَبَ ٱلنّعيم إِلى جحيم .

المؤمنة الصابرة

اشتدّ أذى ٱلْكُفار والمشركين لِرَسولِ الله ﷺ وٱنْفَرد (عليه السَّلام) بأهْلِهِ وبالمؤْمنين فى شِعْب (أبى طالب) سنين عددا ، قد فُرِضَتْ عَلَيْهم ٱلمقاطَعَةُ وٱلمُباعدةُ ، فكانَتْ «زينبُ» ـ رضى ٱلله عَنْها ـ تأْلَمُ وتحْزَنُ ، وتبكى أَحيانًا . ثم تصْبر على قضاء ٱلله . أَملا بالفَرَجِ والضياء . بَعْد ليل دامس من ٱلْعذاب ...

وقد رأى رسول الله ﷺ من المشركين كثيرَ الأَذى . وعظيمَ الشدَّة ، خصوصًا إِذا ذهب إِلى الصلاةِ عندَ البيت . وكان من أعظمِهم أَذى لرسولِ الله ﷺ جماعة سُمُّوا لكثرةِ أذاهم بالمستهزئين . وأَوَّلُهم وأَشدُّهم أبو جهل (عمرو بن هشام) بن المغيرة المخزومى القُرَشىّ . قال يوما : يا معشر قريش إن محمَّدًا قد أَتى ما ترون من عيب دينِكم وشتم آلهتِكم وسبّ آبائكم ، إِنى أَعاهِدُ الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر لا أُطيقُ حملَهُ فإذا سجدَ فى صلاته رضخْتُ به رأسَهُ فأسلِمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعدَ ذلكَ بنو عبدِ مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أخذ حجرًا كما وصف ثم جلس لرسولِ الله ﷺ ينتظِرْهُ وأقبل عليه السلام وكان يغدو إلى صلاته وقُريش فى أَنديتهم ينتظرون ما أبو جهلٍ فاعلٌ . فلما سجد عليه السلام احتملَ أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا من الفزع ، ورمى حجره من يده . فقام إليه رجالٌ من قريش فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟!

قال : قمتُ إليهِ لأفعلَ ما قلتُ لكم ، فلمّا دنوت منه عرض لى فحلٌ من الإبلِ ، والله ما رأيتُ مثله قط هَمَّ بى أن يأكلنى .

فلّما ذُكر ذلك لرسول الله قال : ذاكَ جبريل ، ولوْ دَنا لأَخَذَهُ .

وماتَتْ «خديجة» الأُمّ الرءوم ...

ومات «أبو طالب» العمُّ الحنون ...

واستبدَّتْ بقريشٍ نَزْعَةُ الْجَهْلِ والشِّرك والإيذاء .

فراح الألم يُمزِّق قَلْبَ «زينَبَ» عليْها السلام ، ويفْرى كَبِدَها .

الهجـــرة

وأَصْبَحَتْ ذاتَ يَوْمٍ ، وقد طَبَّقَ أجواء مكة خَبَرُ مُطارَدَةِ قُرَيْشٍ لرسول الله ﷺ الذى خَرجَ من (مكّةَ) إلى (يَثْرِبَ) مهاجرًا ، فلما عَلِمتْ بوصُولِهِ سالمًا اطمأنّت وسعدتْ ...

وبَعْد أيام جاءَ من يَثْرِبَ مُوفَدٌ فَصَحِبَ أُختيْها «فاطمة» و«أم كلثوم» وبقيت زينَبُ فى (مكة) فى مَنْزِلِ زَوْجها «أبى العاص» تنتظر قضاءَ الله وأَمْرَهُ .

الأســير

وخَرَجَ «أبو العاص» مع قُرَيْشٍ فى نفيرها لحماية تجارتها التى تَعَرَّضَتْ لِتَهْديد المسلمين ، ودارت رحى القتال ، وانْتَصَرَ المسلمون ، ووقع «أبو العاص أَسيرًا» .

ولما استعرض رسول الله ﷺ الأَسْرى نحّى «أبا العاص» جانبًا وقال لأصْحابه :

ـ استوصوا بالأَسْرى خَيْرًا

وكانت «زيْنَبُ» فى وضْعٍ لا تُحْسَدُ عَلَيْه . وحين بَدأَت عمليَّةُ فداءِ الأَسرى ، كانت رضى الله عنها راغبة فى عَوْدةِ زَوْجها إليها مُستثيرةً هِمَّة والدها العظيم لذلك ، فاستخْرجَتْ من صُنْدوق ثيابها وحليِّها قِلادَةً كانت لأُمها «خديجة» رضى الله عنها ، وأهدتْها إليها يَوْم عُرسها . ثم حَمّلتها لشقيق زَوْجها (عمرو بن الربيع) كى يُقَدِّمها فِدْيةً عن زوجها .

ولم يكدْ (عليه السلام) يرى تلك القِلادَةَ حتى رَقَّ لها رِقَّة شديدة ، وخَفَقَ القلب الكبير لِلذِّكرى العظيمة .

وأَطرَقَ الحاضرون من الصّحابة خاشعةً أَبصارُهم وقد أُسروا بجلال الموقف وروْعته .

وبعْد صَمْت طويل قال ﷺ :

ـ إن رأيْتُم أن تُطْلِقوا لها أسيرها وتَرُدُّوا عليها مالَها فافْعلوا ! ! !

فقالوا جميعًا :

ـ نعَمْ يا رسول الله

* * *

الفــراق

لكن النبي ﷺ أوصى (أَبا العاص) أن يُرسِل (زينب) ويتركها فإن الإسلام قدْ فرّق بينهما .

وعاد (أبو العاص) إلى (مكة) فاستقْبلَتْهُ (زيْنَبُ) هاشَّة باشّة ، فَرِحَة مُرَحّبة ، وكان هو بادى الوجوم ، ظاهِرَ ٱلحُزْن . ثم قال :

ـ جئتُكِ مُوَدّعًا يا (زينبُ) ...

وأَخبرها بما وعَدَ أَباها من رَدِّها إِلَيْه .

وعلى مضضٍ خرجَتْ (زينب) من (مكّة) . وودّعتْ (أبا العاص) وداعًا مؤثّرًا ، فقال لها :

ـ مهما يَحْدُث يا (زينب) فسأبْقي على حُبّك ما حييتُ وفيًّا ، وسَيبْقي طَيْفُكِ أبدًا ملءَ هذه ٱلدار التى شَهِدَت أَحْلى وأَطْيب أيام حياتنا ..

ومَسَحَتْ (زينَبُ) دُمُوعها المترقْرِقة . وانْصَرَفَت .

ولكنّ قُرَيْشًا تصدَّتْ لها ومَنَعَتْها وأعادتْها إلى مَكّة . وروِّعَتْ (عليها ٱلسلام) بما حَدَثَ لها ، وكانت حاملاً ، فَنَزَفَتْ دمًا وأجهضَتْ حملها ، وحماها (أبو العاص) عندهُ حتى استعادتْ قُوَّتها وعافيتها . وٱغْتَنَمَ يَوْمًا غَفِلَتْ فيه قُرَيْش عنها ، فأَخرجها بصحبةِ أخيهِ (كنانَة بن ٱلربيع) حتى أَبْلَغَها مأمنها عند رسول ٱلله ﷺ . وعاد (كِنانَةُ) يُرَدِّدُ وينشد :

عجِبْتُ لـ (هبّارٍ) وأوْباش قومِهِ
يريدون إخْفارى بِبِنْتِ محمد
ولستُ أبالى ، ما حييتُ ، عديدَهُم
وما استَجْمَعَتْ قبضًا يدى بمهنّدى

فى الأَسر مرة ثانية

خرج (أبو العاص) إلى ٱلْشام فى عِيرِ لقُرَيْش ، وبَلَغَ رسُول ٱللّه ﷺ أنّ تلْك العير قد أَقْبلَتْ من الشام ، فأَرسل (زيْدَ بن حارثة) ـ رضى ٱللّه عنه ـ فى مائة وسبعين راكبًا فَلَقُوا العير بناحية (ٱلعيص) فى جُمادى الأُولى سنةَ ستٍّ من ٱلهجرة ، فأخذوها وما فيها من الأَثقال ، وأَسروا جَماعَة مِمَّن كانُوا فى حراسَةِ القافلة ، مِنْهُم «أبو العاص بن الربيع) .

ودَخلَ (أبو العاص) على (زينب) مُسْتجيرًا فأَجارتْهُ ، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجرَ قامَتْ (زينب) على باب أبيها مُسْتَشْفِعةً وقالت :

ـ إنِى قد أجَرْتُ (أبا العاص بن الربيع) ... فخرج (عليه ٱلْسلام) وقال :

ـ أيها النّاس هل سَمِعْتُم مِمَّا سَمِعْت ؟

قالوا : نَعْم .

قال :

ـ فوا الذى نَفْسى بيدِهِ ما علمْتُ بشىْءٍ مما كان حتى سَمِعْتُ ٱلذى

سمعتُم : (المؤْمنون يَدٌ على مَنْ سواهُم يُجيرُ عليهم أَدْناهم) وقد أَجَرْنا مَنْ أَجَارَتْ .

فلما انْصَرَف (عليه السلام إلى منزله دخَلَتْ عليه (زينب) فَسَأَلَتْهُ أن يَرُدّ على (أبي العاص) ما أُخِذَ مِنْهُ ، فَفَعل ، وأَمَرها أن لا يقْربها فإنّها لا تَحِلُّ له ما دام مُشْركًا .

* * *

ورَجَعَ (أبو العاص) إلى مكّة فأَدّى إلى كُلّ ذى حقٍّ حَقه ، ثُمَّ أَعلن إسلامهُ فى نادى قُرَيْشٍ وعلى رءوس النّاس ، وانصرف إلى المدينة ، مُسْلمًا مُهاجرًا ، وردَّ عليه رسُولُ ٱلله ﷺ (زيْنَب) ، فاجتمع ٱلشّمل ، واكتمل العقد ، وخيَّم على الدار ماكان مِنْ قبلُ من حُبُورٍ وسرورٍ وسعادة .

* * *

الفــراق الأبــدى

مضى على ٱلزَّوْجين عام واحد فى ٱلمدينة يعبّان من السعادة والفرحة ، ثُمَّ كان الفراق الذى لا لقاءَ بَعْده ، إذ ماتَتْ (زينبُ) رضى ٱلله عنها ـ فى مُسْتَهَلِّ السنة الثامنة للهجرة متأَثّرة بمرضِ النّزف الذى لازمها منذ هِجْرتها .

وبكاها (أبو العاص) بُكاءً حارًا ، وتشبَّث بها حتى أبْكى منْ حَوْله ، وجاء رسُول الله ﷺ دامع ٱلْعيْن محزون ٱلفؤَاد ، ثم قال :

ـ اغْسِلْنها ثلاثًا ... واجْعَلْن فى ٱلآخرةِ كافورًا ، ثم صلّى عليْها ، وشَيَّعها إلى ٱلمقرِّ الأَخير.

* * *

وعاد (أبو ٱلعاص) إلى ولَدَيْه : (علىٍّ) و(أُمامة) يُقَبّلهما ويبلّلهُما بدمُوعِهِ مُسْتَذْكرًا وَجْهَ الحبيبة ٱلْغائبة.

* * *

رضى ٱلله عن (زينب) بنت رسول ٱلله ﷺ وجزاها بما صَبَرَتْ وكافَحَتْ وجاهَدَتْ جَنَّةً وحريرًا.

* * *

رُقَيَّـــة

بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

قال اللّه تعالى :

﴿تَبَّتْ يدا أَبى لَهَبٍ وتَبَّ * ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وما كَسَبَ * سيَصْلى نارًا ذاتَ لَهَبٍ * وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فى جيدِها حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾ .

ـ صَدَق الله العظيم ـ

سورة المَسَدْ

لما أَنْزَل الله تعالى قَوْله : ﴿وأَنْذِرْ عشيرتَك الأَقربين﴾ خَرجَ رسول اللّه ﷺ حتى أَتى «الصّفا» فَصَعِدَ عليْه وهتف :

ـ وا صباحاه ...

فلمّا اجتمعوا إِليه قال :

ـ أَرأَيْتُم لوْ أَخْبَرْتُكم أَنَّ خيْلاً تَخْرُج من سَفْحِ الجبل أَكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ ؟؟

قالوا :

ـ ما جَرَّبْنا عليْك كذِبًا ...

قال :

ـ فإِنى نذيرٌ لكم بَيْن يَدَىْ عذابٍ شديد .

فانْبرى له أَبو لَهَبٍ قائلاً :

تبًّا لَكَ أَلِهذا جمعْتنا ...

فأَنزل اللّه تعالى قوْلَهُ : ﴿تبّتْ يدا أَبى لَهَبٍ﴾ .

وقال الشاعر الأَنصارى (الأَحوص) فى حَبْلِ امرأَة أَبى لَهَبٍ :

ما ذاتُ حَبْلٍ يراهُ النَّاس كُلُّهم
وسْطَ ٱلجحيمِ ولا يَخْفى على أَحَدِ
كُلُّ الحبال ، حبال الناس ، من شَعَرٍ
وحَبْلها وَسْطَ أَهْلِ النَّارِ مِنْ مَسَدِ

* * *

توطئة

لقد كان ٱللّه تعالى مانِعًا لرسُولِه ﷺ ولِمَنْ تَبِعَهُ من المُؤمنين ، فلا تنالُ قريش من إِيمانِهم وقلوبِهم وعزائِمِهِم ، وإِنْ نالَتْ من أَبْدانِهم .

فقد رُوِىَ أَنَّ «أُمَّ جميل» ـ حمَّالَةَ ٱلحطب ـ حين سَمِعتْ ما نَزَلَ فيها وفى زَوْجها من القُرآن ، أَتَتْ رسولَ ٱللّه ﷺ وهو جالسٌ فى ٱلمسجدْ عند الكعبة ومَعَهُ أَبو بكْرٍ الصديق ـ رضى ٱللّه عنه ـ وفى يَدِها فِهْرٌ من حجارةٍ ـ وهى قطعةٌ تَمْلأُ الكفَّ ـ فلمَّا وقفَتْ عَلَيْهِا أَخذَ ٱللّهُ بِبَصَرِها عن رسول الله ﷺ فلم تَرَ إِلا أَبا بكرٍ ، فقالتْ :

ـ يا أَبا بكر ، أَيْن صاحِبُك ، فَقَدْ بَلَغَنى أَنَّه يهجونى ، وٱللّه لَوْ وجَدْتُهُ لَضَرَبْتُ بهذا ٱلفِهرِ فاهُ ، أما والله إِنِّى لشاعِرةٌ ، ثم قالت :

مُذَمَّمًا عَصَيْنا ، وأَمْرَهُ أَبَيْنا ، ودِينَهُ قَلَيْنا .